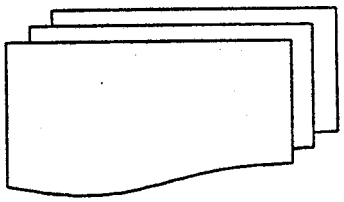

قـــراءة ثانيـــة للاميـــة اليهـــود للسمـــوأل فـــي ضـــوء نظريـــة النظـــم

إعداد

أ.د/ علـــي عبـــد الحميـــد أحمـــد عيـــسى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بالكلية

لجنة التحكيم

أ.د/ فريـد محمـد بـدوى الـنكلاوى عضو اللجنة العلمية الدائمة

أ.د/ أحمـد عبـد الجـواد عكاشـة عضو اللجنة العلمية الدائمة

قــراءة ثانيــة[١] للاميــة اليهــود [٢] للسمــوأل[٣] فــي ضــوء نظريــة النظــم

توطئة : دلالة النظم على نسبة القصيدة [٤] :

هناك من المؤرخين المحدثين [٥] من ينكر شخصية السموأل جملة وتفصيلاً ويدخلها في دائرة حديث الخرافة والوهم... وهو بعيد عن الواقع التاريخي والنتاج الأدبي له ...

---

(١) هناك قراءات أولى لهذه اللامية سواء للباحث أو لغيره، فقد قرأها لطلاب السنة الثالثة في البحث البلاغي قراءة ثانية، وكانت دراسة أولى، كما قرأها غيره قراءة أدبية كما فعل د/ محمود الريداوي في مجلة التراث العربي دمشق، وكما فعل المرزوقي في تحليلها تحليلاً لغويا عاماً ... ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٠/١ وما بعدها .

(٢) الإضافة هنا للاحتراز ـــ بدءا ـــ عن غيرها من اللاميات ؛ فهي متنوعة بحسب الأمم التي تضاف إليها، فهناك لامية العرب للشنفرى، ولامية العجم للطغرائي، ولامية المماليك لابن خلدون، ولامية الهند لعبد المقتدر الكندي الدهلوي، واللامية الأموية لشاعر المهجر أبي الفضل الوليد (إلياس طعمة) قبل إسلامه، بالإضافة إلى اللامية موضع الدراسة فهي تنسب إلى السموأل اليهودي .

وهذه اللاميات هي مجموعة متميزة من القصائد ينتظمها قاسم مشترك أنها على قافية اللام، كما أنها تشترك في المعاني المفرغة فيها والأفكار والعواطف، فهي كلها تدور حول تمجيد الذات والقبيلة والعشيرة بما فيها من إيجابيات قيم التمجيد والتغني بالمآثر، بجانب احتفالها بالحكمة ... ثم تشترك في الطول الذي يساعد في إفراغ هذه المعاني مجتمعة ... ومن ثم تقبلها الفرد والجماعة ...

قراءة في لاميات الأمم د/ محمود الريداوي مجلة التراث العربي دمشق العدد ٨٣، ٨٤ موقع اتحاد الكتاب العرب الالكتروني .

(٣) هو السموأل بن غريض بن عادياء بن رفاعة بن الحارث الأزدي شاعر جاهلي من سكان خيبر، أشهر شعره لاميته وهي من أجود شعره . انظر : ترجمته في الأغاني لأبي الفرج ١٢٢/٢٢ تح سمير جابر ـــ دار الفكر العربي ـــ بيروت ـــ ط ثانية، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ٢٧٩/١ .

(٤) تمييز المنحول عن طريق النظم والتركيب بحاجة إلى دراسات متتابعة تبدأ بفقه بيان الجاهليين جملة وتفصيلاً ..

(٥) د/ فضل بن عمار العماري في بحثه : السموأل الحقيقة والتاريخ ـــ مجلة جامعة الملك سعود ص ٣١٢، ٣١٣، العدد ١٤٢٢هـــ ٢٠٠٢م، وهو قائم في أكثره على تتبع الوقائع التاريخية من غير أن يدخل إلى بيان السموأل وما يشي به .. لذا لم نتوقف عنده كثيراً ...

وهناك من ينكر نسبة القصيدة إلى السموأل على سبيل القطع واليقين، بل يجعل النسبة احتمالية عن طريق ترديد النسبة بينه وبين عبد الرحيم بن عبد الملك الحارثي شاعر عباسي ... كما فعل المرزوقي [1] وغيره ... أو هي موضوع أكثرها عليه وإن كان له بعض أبياتها ... [2]

ولكن الناظر فيها يتبين له اتساق المعاني الشائعة فيها والتي قامت عليها، ثم ما فيها من سمات نظم يجد نسبتها إلى السموأل أقرب وبه ألصق.. وذلك لما يلي:

أولاً : قامت القصيدة على رد ما يتوهم من الازدراء والعيب بقلة العدد، فكانت تلك القلة هي الهاجس الذي غلب على الشاعر ... وهذا أكثر تلاؤماً مع حال اليهود في الجزيرة العربية، حيث كانوا محصورين فيها بين قبائل عربية من اتجاهات عدة ...

ثانياً : القول بأن القصيدة مصنوعة وموضوعة عليه لا يتلاقى مع الشعر الموضوع المصنوع وما فيه من دلائل الصنع في أسلوبه ونسجه وهلهلة بنائه وتراكيبه... وتنافر معانيه .. وهذا لا تجده في القصيدة التي معنا ..

ثالثاً : التباين بين القصيدة في مدخلها ومزجها .. وهيكلها وبنائها مع غير النهج التقليدي لبناء القصيدة العربية، يجعلها أقرب إلى شعر اليهود ...

رابعاً : تركيز الشاعر فيها على صفاء السلالة ... ونقاء النسب يتناسب مع دعاوى اليهود ذلك ... وهذا بين ..

خامساً : ألا يتمثل في بناء هذه القصيدة وتركيبها عمود الشعر العربي على وجه أكمل من غيره ؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب ـــ ولا أراك تنفي ذلك ـــ فاعلم أنه ألصق بالشعر الجاهلي

---

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة ١/١١٠، والأغاني ٢٢/١٣٠، ومعاهد التنصيص للعباسي ١/١٢٩ وما بعدها.

(٢) وهو ما انتهى إليه د/ محمود الريداوي في بحثه (قراءة في لاميات العرب) في قوله : (ولكي ننصف السموأل يمكن أن نقول إن له بعض الأبيات على القافية اللامية المضمومة والبحر الطويل اختلطت في أذهان الرواة بلامية الحارثي، ثم جاء بعد ذلك أناس فنسبوا القصيدة كلها للسموأل)، وهذا كلام بين الفساد لأنه لا اختلاف في نسجها وبنائها في فقرها وأركانها ... ولا تضاد في معانيها .. ثم إن قوله (ثم) يدل على أن هذا الاختلاط في أذهان الرواة استمر مدة طويلة، ولو كان كذلك أشار إليه النقاد، ولعنوا به عنايتهم بالانتحال ... وهذا لم يحدث فدل على بطلان ذلك وترجيح نسبتها إلى السموأل ...

وأقرب وأكثر لحمة به ... ونسبتها إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي وقد عاش في القرن الثالث يباعده عنها .. وأنت تعلم الآثار التي ترتبت على تداخل الحضارات والثقافات في العصر العباسي الثاني على معانيه وتراكيبه ... بل على ألفاظه.. ومن ثم تجد ابن طباطبا العلوي [1] يصف أبياتها بما يوصف به الشعر الجاهلي فهي عنده متقنة مستوفاة المعاني، حسنة الوصف، سلسلة الألفاظ لا استكراه في قوافيها ولا تكلف في معانيها .

وقد يقال : كيف تقول في رواية البيت :

وما مات منا سيد حتف أنفه ∴ ولا طل منا حيث مات قتيل

وقد ذكر العلماء أن أول من قال (مات حتف أنفه) هو الرسول ﷺ، ألا يدل هذا التركيب على أنها إسلامية ؟ أقول لك : إن الرواية التي ذكر التبريزي ـ وهو من هو ـ : (وما مات منا سيد في فراشه ... البيت) تؤيد ما ذكرنا ومن ثم يسقط الاعتراض أصلاً ... كما سترى في موضعه من القصيدة . [2]

---

(١) انظر : عيار الشعر ص ٦٣ تح / عباس عبد الساتر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط أولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

(٢) انظر : تحليل البيت في موضعه من البحث ص

نص القصيدة [1]

١. إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ∴ فكل رداء يرتديه جميل
٢. إذا المرء لم يحمل على النفس ضيمها ∴ فليس إلى حسن الثناء سبيل
٣. تعيرنا أنا قليل عديدنا ∴ فقلت لها إن الكرام قليل
٤. وما قل من كانت بقاياه مثلنا ∴ شباب تسامى للعلا وكهول
٥. وما ضرنا أنا قليل وجارنا ∴ عزيز وجار الأكثرين ذليل
٦. لنا جبل يحتله من نجيره ∴ منيع يرد الطرف وهو كليل
٧. رسا أصله تحت الثرى وسما به ∴ إلى النجم فرع لا ينال طويل
٨. هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره ∴ يعز على من رامه ويطول
٩. وإنا لقوم ما نرى القتل سبة ∴ إذا ما رأته عامر وسلول
١٠. يقرب حب الموت آجالنا لنا ∴ وتكرهه آجالهم فتطول
١١. وما مات منا سيد حتف أنفه ∴ ولا طل منا حيث كان قتيل
١٢. تسيل على حد الظبات نفوسنا ∴ وليست على غير السيوف تسيل
١٣. صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا ∴ إناث أطابت حملنا وفحول
١٤. علونا إلى خير الظهور وحطنا ∴ لوقت إلى خير البطون نزول
١٥. فنحن كماء المزن ما فى نصابنا ∴ كهام ولا فينا يعد بخيل
١٦. وننكر إن شئنا على الناس قولهم ∴ ولا ينكرون القول حين نقول
١٧. إذا سيد منا خلا قام سيد ∴ قؤول لما قال الكرام فعول
١٨. وما أخمدت نار لنا دون طارق ∴ ولا ذمنا فى النازلين نزيل
١٩. وأيامنا مشهورة فى عدونا ∴ لها غرر معلومة وحجول

---

(١) هذه رواية الديوان ١٣ ولم يذكر المرزوقي البيت الثامن، ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقى / ١١٠ – ١٢٤.

٢٠. وأسيافنا فى كل غـرب ومـشرق ∴ بها مـن قـراع الـدارعين فلـول

٢١. معـودة ألا تـل نـصالها ∴ فتغمـد حـتى يـستباح قبيـل

٢٢. سلى إن جهلت الناس عنا وعنكم ∴ فلـيس سـواء عـالم وجهـول

٢٣. فإن بنى الـديان قطـب لقـومهم ∴ تـدور رحـاهم حـولهم وتجـول

مطلع القصيدة وتلاؤمه مع المعانى والتراكيب المبثوثة فى القصيدة :

إذا المرء لم يندس من اللـؤم عرضـه ∴ فكـل رداء يرتديـه جميـل

إذا المرء لم يحمل على النفس ضـيمها ∴ فليس إلى حسن الثنـاء سـبيل

يبدأ الشاعر قصيدته بقضية عامة، ويسلكها فى صيغة الشرط والجزاء حتى تكون القـضية عامة وصالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ..

ثم شىء آخر، وهو أن استهلال كلامه بهذه الحكمة العامة التى لا تنكر فيه دليل صـدق قوله الآتى بعد ذلك فى بيان صفات قومه وحلو شمائلهم وكريم فضائلهم .. فهو مصدق مـن أول الأمر [1] ..

كما أن صياغة الجملة على الشرط والجزاء يجعلها لا تتخلف عنـد تحقـق الأول ؛ لأن الارتباط بين الشرط والجزاء ارتباط أولى، ومن ثم إذا تتبعته فى نظم الكلم العالى وجدته يـأتى فى الأمور المركوزة فى الطباع، والمقررة فى العقول ... وهذا بين فى هذا المطلع ... ؛ إذ إن ذلـك لا يشك فيه أحد ؛ إذ هى نتاج تجارب إنسانية عامة ...

وإيثار " إذا " فى الشرط فى البيت الأول، لأن ذلك أمر محقق مقرر، لا يشك فيه ؛ ولـذا فرق البلاغيون [2] بين التقييد بـ " إذا " والتقييد بـ " إن " بأنها ـ إذا ـ تأتى فى الأمر الثابت المحقق، المقطوع بوقوعه فى المستقبل بحسب اعتقاده ...، بخلاف : " إن " فهـى تـأتى فى الأمـر المشكوك فيه، المتوهم وقوعه، أو المظنون به، والأصل فيها الخلو عن الجزم بوقـوع الـشرط ولا

(١) ينظر : معلقة زهير فى ضوء نظرية النظم د/ عبده زايد ص ١١٠ .

(٢) ينظر : المفتاح / ٢٤، والإيضاح /٥٣، واليعقوبى (شروح) ٣٩/٢ .

وقوعه، بل يجوز كل منهما لكونه غير محقق الوقوع .. [1]

ولكن يتأتى على رواية التبريزى للبيت الثانى :

وإن هو لم يحمل على النفس ... ∴ .....البيت

بـ " إن " دون " إذا " كما هو فى البيت الأول = إشكال ؛ ذلك لأن الأمر مقرر معلوم ـ أيضاً ـ فهى حكمة كسابقتها، ووجهها ـ عندى ـ على وضع [2] " إن " موضع " إذا " لنكته تتصل بالغرض المراد هنا ؛ ذلك لأن حمل النفس على ما تكرهه حتى تبلغ مرادها لا يصل إليه إلا القليل من الرجال، فهو عزيز وغال، وإن كان مقطوعا به عند تحقق الشرط ... ويكون فى القيد السابق دلالة على الثانى وفى المقام دلالة على الأول ...

وإيثار " المرء " فى الشرط دون غيره من الناس أو البشر .. الخ لأن " المرء " يفيد أدب النفس، ولهذا يقال : المروءة أدب مخصوص [3]، وهذا يتلاقى مع سياق القصيدة ؛ لأن جميعها فى بيان آداب وأخلاق كريمة قد تأدبوا عليها فشب عليها الصغير، وشاب فيها الكبير، وهذا ما يشير إليه قوله :

شباب تسامى للعلا وكهول

ولذلك ـ أيضاً ـ جعلها حكمة عامة لكل الأمم ؛ فلم يقيد ذلك بالعرب وحدهم أو المسلمين ... بل جعلها شاملة فقال : " إذ المرء"..

ولهذا فتعريف المرء بـ " ال " لإرادة الجنس، وإن كان فيه رائحة العهد عن طريق التعريض المستقى من قوله :

تعيرنا أنا قليل عديدنا ∴ فقلت لها إن الكرام قليل

وبناء النظم على النفى فى قوله : " لم يدنس من اللوم عرضه " دون ما يقابلها من اكتساب المروءة والحمد ... للتنفير والتقبيح ؛ ذلك لأن إيثار الدنس واللوم وهو اسم لخصال

---

(١) ينظر : اليعقوبى ٢/٣٩ .

(٢) ينظر : أغراض ذلك عند البلاغيين فى : المفتاح /٢٤٠ ـ ٢٤٦، والإيضاح / ٥٤ ـ ٥٧، والشروح ٣/٣٩ ـ ٧٠، والتجريد ١/٢٣٤ ـ ٥٠٣ .

(٣) ينظر : الفروق اللغوية /٣١٠ .

تجتمع من البخل واختيار ما تتقيه المروءة والصبر على الدنية، ودناءة النفس والآباء [1]، ثم جعل ذلك مسنداً إلى العرض وهو أغلى ما عند العربي كل ذلك يقبح سلوك القوم ويغرى بصفات الكريم، ولذا قال زهير [2] :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ∴ يعزه ومن لا يتق الشتم يشتم

حيث آثر : " من دون " للدلالة على أنه يجب أن يكون العرض أعلى من كل شيء معروف، مالاً كان أو جاهاً أو سلطاناً أو غير ذلك ... كل ذلك يجب أن يكون " دون " العرض لا مساوياً له .. ؛ لأن في صيانة العرض كل الكسب وفي هوانه كل الخسارة .. كل ذلك يقبح سلوك اللؤم ويغرى بصفات الكريم

وإيثار الفعل المضارع : " يدنس " لإرادة التجديد والحدوث، دلالة على تكرار فعل القبيح منه آنا بعد آن كما هي دلالة الفعل المضارع عند البلاغيين . [3]

وإيثار الاستعارة في قوله :

فكل رداء يرتديه جميل

لمعنى قصده الشارع ؛ ذلك لأن القصد فكل عمل يعمله بعد تجنب اللؤم يكون حسناً .. ، فليس ذلك كقول عمرو بن معد يكرب :

ليس الجمال بمئزر ∴ فاعلم وإن رديت بردا [4]

والتعبير بالرداء استعارة تصريحية بليغة، لدلالتها على اشتمال العمل للإنسان كاشتمال الثوب للابسه،

ثمة أمر آخر وهو دلالة الاستعارة كشف العمل عن معدن صاحبه وبيانه له، كما يشف الرداء عن لابسه ويميزه ..

وهي استعارة مرشحة بقوله :" جميل " لأنها تلائم الثياب ..

---

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١١٠ .

(٢) ينظر : شرح المعلقات السبع للزوزني / ٣٢ .

(٣) ينظر : الدلائل /١٧٥، والإيضاح / ٥٣ .

(٤) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٠ .

ومجئ جملة جواب الشرط اسمية مقترنة بالفاء لإرادة الثبات والتسبب أما الثبات من الجملة الاسمية كما هو عند القوم [1]، أما التسبب فهو من الفاء كما هو مقتضاها عند اللغويين..

وبناء الجملة على الشرط والفاء فيه ارتباط بين أجزاء الكلم، ويقوى التعلق بينها .. وهذا من النظم العالى عند الإمام .. [2]

وفى البيت الثانى يكرر الشاعر : " إذ المرء " فى رواية المرزوقى، وعند التبريزى " وإن هو".

ورواية المرزوقى أدل على الاعتناء والمبالغة لاسيما فى مقام التفخيم والتعظيم ؛ ذلك لأنهم يكررون أسماء الأجناس كثيراً، لاسيما إذا قصدوا التفخيم بها، كما قال عدى : [3]

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ∴ نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

وكذا فى قول شهل بن شيبان :

مشينا مشية الليث ∴ غدا والليث غضبان

فلم يقل وهو ..

وهذا تجده فى القصيدة نفسها واقعاً، تدبر قوله :

تسيل على حد الظبات نفوسنا ∴ وليست على غير السيوف تسيل

فلم يقل وليست على غيرها تسيل . [4]

وإيثار " يحمل " وتعديته بـ " على " لدلالته على المشقة فى بلوغ هذه الدرجة من تحمل المشاق، وإهانة النفس فى طلب الحقوق ..

والإضافة فى " ضيمها " لها وجهان : يجوز أن تكون إضافة المصدر " ضيم " إلى الفاعل .. وهو الوجه الأول ...، ويمكن أن تكون ـ لغة ـ من إضافة المصدر إلى المفعول، أى : ضيم الغير

---

(١) ينظر : الدلائل /١٧٦، والإيضاح /٥٢ .

(٢) ينظر : الدلائل / ٤٥ .

(٣) ينظر : الكتاب ١/٣٠ .

(٤) شرح ديوان الحماسة ١/٣٥، ٣٦، ١١٦ .

لها [1] .. وهذا بعيد متعسف ..

والوجه الأول هو الأرجح ؛ ذلك لأن من عادتهم ـــ قديماً ـــ حمل أنفسهم على ما تكره في سبيل بلوغ الثناء والحمد .. كما قال أبو فراس :

تهون علينا في المعالى نفوسنا ∴ ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

وقول بعضهم :

وإني لعبد الضيف مادام ثاويا ∴ وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

ويأنفون من ضيم غيرها لها، ويعدونه تذللاً، وربما رموا بأنفسهم المهامة والقفار ولم يرضوا بالذل والضيم من الغير .. تدبر قول الفرزدق :

إن تنصفونا يا آل مروان نقترب ∴ إليكم وإلا فأذنوا ببعاد

فإن لنا عنكم مزاحا ومذهبا ∴ بعيس إلى ربح الفلاة صواد

وفي الأرض عن ذي الجور منأى ومذهب ∴ وكل بلاد أوطنت كبلادي

فإذا لم يكن له صبر على الاهتضام، ولا طريق إلى الانتقام، فلا ثالث لهما إلا الانتقال..." [2]

وزيادة " حسن " فلم يقل فليس إلى الثناء = زيادة في المبالغة لأن قصدهم إلى حسن الثناء وليس إلى الثناء المطلق ؛ ذلك لأن الحسن فيه معنى العموم والشمول، فهو يكون في الجملة والتفصيل، وفي الأفعال والأخلاق [3] ..

وفي تنكير " سبيل " معنى التقليل، أي سبيل إلى طلب الذكر الحسن، ولو كان قليلاً .

والبيتان مبنيان على حذف الفعل " المسند " بعد " إذا " إذ التقدير لا محالة ـــ في الأول ـــ إذا لم يدنس المرء عرضه ـــ وفي الثاني ـــ إذا لم يحمل المرء ... وفي حذفهما زيادة تأكيد لتكرار الإسناد ...

---

(١) السابق / ١١١ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ٦٧٦ .

(٣) ينظر : الفروق اللغوية / ٢٩١ .

كذلك قد بنى النظم على رواية المرزوقى ــ على الفصل . لأن الشاعر قد أراد التعداد...

أما على رواية التبريزى: "وإن هو " فيكون قد عطف الكلام الثانى على الأول لدخوله فيه، واندراجه معه فى الحكم ...

وفى استهلال القصيدة بهذين البيتين براعة استهلال وحسن افتتاح لتعلقها بما فى القصيدة من معان متعددة، وأغراض متنوعة ..

أما البيت الأول فله تعلق وصلة بقوله : " تعيرنا أنا قليل " وما بعده؛ إذ فيه رد منى لتعييرها إياه، فهو لم يدنس عرضه بلؤم، فليس ثم ما يعيره به ...

أما البيت الثانى إذا المرء لم يدنس من اللؤم .. الخ فله تعلق بكل الصفات التى ذكرها لقومه من المنعة والقوة، والشجاعة والنجدة .. لأنه بذلك يكون قد بين طريق اكتسابهم لها ...

تعيرنا أنا قليل عديدنا ∴ فقلت لها إن الكرام قليل

وما قل من كانت بقاياه مثلنا ∴ شباب تسامى للعلا وكهول

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ∴ عزيز وجار الأكثرين ذليل

فى هذه الأبيات إلى نهاية القصيدة يؤثر الشاعر فيها ضمير الجمع فى بيان الصفات الحميدة، ورد ما يشينهم ...

وضمير الجمع هنا دال على الفخر القبلى الذى يندمج فيه الشاعر فى قبيلته، ويذوب فيها، وهذا يدل على اعتزازه بقومه، وافتخاره بالانتساب إليهم، ويكون ذلك غالباً عندما يكون الشاعر ذا ذكر فيهم، وشأن بينهم .. وهذا يمثله واضحاً عمرو بن كلثوم فى معلقته ...

وهذا وجه مقابل للفخر الذاتى، حيث ينكفئ الشاعر على نفسه، فيعلى من قدرها ويبين مآثرها ... ويكثر ذلك عندما يضام الشاعر فى قومه، أو عندما لا يجد مكاناً بينهم ... أو يكون فى مبدأ أمره .. وهذا يمثله عنترة فى فخره ..

ومن ثم فإيثار ــ ضمير الجمع هنا فى جميع القصيدة يدل على معنى آخر غير الفخر والاعتزاز وهو علو شأنه بينهم فهو تكلم بلسانهم، ورضاه عن قومه فهو ينافح عنهم، ولذلك تراه فى الرد والمنافحة يرجع إلى ضمير الإفراد : " فقلت لها " ليدل على أنه المدافع عنهم عند المقاولة... والمبين لمجدهم عند المفاخرة، ثم فيه معنى آخر وهو الدلالة على الشمول فى الذوات، أى

أنهم جميعاً قد اتصفوا بتلك الصفات بحيث لا يتخلف عنها أحد منهم ولو كان صغيراً ومن ثم كان ضمير الجمع أدل على الفخر والاعتزاز ..

ويمكن أن يكون فى ضمير الجمع معنى الثقة وبث الطمأنينة فى النفس، بأن لهم قوة تمنع الناس من أن يلحقوا بهم ما يعيرون به ...

وهذه الجملة : " تعيرنا أنا قليل عديدنا " هى التى جعلت الشاعر ينتقص بقوة ليبين مآثر قومه فى الأبيات كلها .. فكأنها أصل النظم وعموده الذى تفرع عنه القول ...

والفعل " عير " قد عداه الشاعر بنفسه، وهو المختار الحسن كما ذكر المرزوقى ، وقد يتعدى بالباء كما فى قول عدى :

أيها الشامت المعير بالدهـ ـر أأنت المبرأ الموفور [1]

ولعل اختيار تعديته بنفسه لدلالة ذلك على قوة الصلة بين الفعل "عير" والعير به، وأن ذلك ألصق .. بخلاف الباء ..

والتأكيد فى قوله : " أنا قليل عديدنا " ليدل على حرصها على إثبات ذلك وتقريره عنده، ولذلك ناسبه أن يكون الجواب مؤكداً أيضاً : " إن الكرام قليل " لأنه فى مواجهة دعواها ورد فحواها فى أن قلة العدد دليل على قلة القدر والغناء، والشرف والذكر .. وهذا من مقامات [2] التأكيد ..

ولعل هذا هو ما دعى الشاعر إلى بناء الكلم على الجملة المصدرة بـ " أن " من دون المصدر، فلم يقل : تعيرنا قلة عددنا ..

وكان مقتضى الظاهر فصل الجملة الثانية : " فقلت لها إن ... " عن الأولى ؛ ذلك لأنها فى جواب سؤال مقدار، وهو بم أجابها ؟ وهل هى صادقة أم لا ؟ ومن ثم فهى استئناف بيانى وهو من مقتضيات الفصل عندهم [3] ..

---

(١) شرح ديوان الحماسة / ١١١ .

(٢) ينظر : الإيضاح ١٣، والشروح ١/٢٠٥ – ٢٠٦ .

(٣) ينظر : الدلائل /٢٣٥، والإيضاح / ٨٧، واليعقوبى ٣/٥٦، ٥٧ .

ولكن يلاحظ أن العطف بالفاء هنا فى : " فقلت " له غرض أراده الشاعر وهو سرعة رده عليها، حتى إنه لم يكن فاصل بين قولها له ورده عليها، دلالة على ثورته من قولها وأن مآثرهم لا تنكر فهى مشهورة ...

فالقول الفصل فى الفصل والوصل أنه تابع للأغراض والمقاصد التى تؤم وتقصد وليس مطرداً فى كل موضع يأتى فيه ... وهذا إن تتبعته فى النظم العالى تجده بيناً ...

وإيثار القول على الجواب وما شاكله ليدل على أنه واجهها به، ورد عليها قولها مباشرة، وهذا أدل على الانتصار والغلبة ..

وإيثار " قليل " بالإفراد تأكيد للقلة، سواء فى رده لها أو فى اتهامها لهم ..

وفى قوله : " إن الكرام قليل " معان متعددة من ولوع الدهر بهم، واعتيام الموت إياهم وقلة النسل فيهم، واستقتالهم فى الدفاع عن أحسابهم، وإهانتهم كدائم نفوسهم مخافة لزوم العار لهم، ومحافظتهم على عمارة ما ابتناه أسلافهم، وكل ذلك يقلل العدد ويقصر المدد .. (١)

وكل تلك المعانى المذكور هى من دواعى الفخر عندهم، فأما ولوع الدهر بهم، واعتيام الموت إياهم، فهو معنى شريف عندهم لدلالته على كرمهم، وإلى هذا ذهب طرفة فى قوله :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ∴ عقيلة مال الفاحش المتشدد (٢)

وكذلك قول دريد بن الصمة : (٣)

أبى القتل إلا آل صمة إنهم ∴ أبو غيره والقدر يجرى إلى القدر

فإما ترينا لا تزال دماؤنا ∴ لدى واتر يسعى بها آخر الدهر

فإنا للحم السيف غير نكيرة ∴ ونلحمه حينا وليس بذى نكر

وكذلك من اعتزازهم وفخرهم باستقتالهم بالدفاع عن أحسابهم قول بشامة النهشلى : (٤)

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ∴ ولو نسام بها فى الأمن أغلينا

---

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٢ .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزنى / ٦٢ .

(٣) شرح ديوان الحماسة ٨٢٤، ٨٢٥ .

(٤) السابق : ١٠٤ - ١٠٧ .

إنا لمن معشر أفنى أوائلهم ∴ قول الكماة ألا أين المحامونا

ويلاحظ أن الشاعر قد بنى كلامه على الأسلوب [1] الحكيم أو القول بالموجب [2] حيث سلم لها دعواها ولكنه عدل بها إلى طريق آخر وهو أن قلة العدد هنا ليست دالة على ما يعير به، بل هي لمعان سامية، وحكم جليلة أشرت إليها سابقاً ..

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾[3] فإن كان المراد تسليم القول بما قالوا، ثم العود إلى دحض قولهم ورده فهو من القول بالموجب، وإن كان المراد صرف كلامهم إلى الأولى والمهم فهو من الأسلوب الحكيم ... [4]

وكذلك الأمر في البيت وإن كان الوجه عندي إلى عده من القول بالموجب على الضرب الأول وهو وقوع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له الحكيم، فيثبت في كلامه تلك الصفة لغير ذلك الشيء [5] .

وهذا هو المراد في البيت ؛ فإنه اعتراف بقلة عددهم ولكن لا على الصفة التي ذكرها وجعلتها داعياً للتعيير، بل على وجه آخر وهو الدلالة على كرمهم، ألا ترى أنه رجع عليه بالنفي في البيت الثاني في قوله :

وما قل من كانت بقاياه مثلنا ∴ شباب تسامى للعلا وكهول

وإيثار : " الكرام " في قوله : " إن الكرام قليل " لدلالته على وجوه كثيرة ومعان متعددة، فهو يدل على العزة، والجود، والحسن، والتفضل، والسيادة ... [6] وهذا أدل على الفخر

---

(١) هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له . الإيضاح / ٤٦ .

(٢) هو الحكم بموجب أمر أثبت لشيء من غير ذكره أو بموجب التعلق المذكور . الإيضاح /٢١٥ .

(٣) التوبة / ٦١ .

(٤) ينظر : اعتراضات الشيخ الطاهر / ٦٦٨ .

(٥) الإيضاح /٢١٥ .

(٦) ينظر : الفروق / ١٩٨ .

وأشبه بالسياق ..

وما قل من كانت بقاياه مثلنـــا ∴ شباب تسامى للعـــلا وكهـــول

العطف بالواو هنا لأن البيت داخل تحت رده السابق، أى قلت لها كذا وقلت لها كذا ..

وتعدد وجوه الرد هنا دلالة على امتلاء نفسه بالجواب، وانفعاله بقولها ... وتعدد وجوه الرد وتنوعها، فهى كثيرة لأن فى فضائلهم ومناقبهم ما يبطل زعمها ...

والنفى بـــ " ما " متلاق مع الدعوى السابقة منها ؛ لأن النفى بـــ "ما " يكون جوابا عن الدعوى ... [1]

ورجوع الضمير فى " بقاياه " مفرداً على لفظ " من " فى قوله " من كانت " لأن لفظهـــا مفرد، للحمل على اللفظ ..

ولو حمل على المعنى لقال : " بقاياهم " بضمير الجمع ؛ لأن معناها جمع، وكلاهما جائز فى العربية، قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[2] فحمل على معنى " من " فجمع دلالة علـــى كثرة المستمعين، ثم قال : ﴿وَمِنْهُم مَّن ينظُرُ إِلَيْكَ ﴾ [3] حملاً على لفظ " من " فأفرد ... دلالة على قلتهم.[4]

ولكن يبقى سؤال هنا، وهو إذا كان كل من الوجهين جائزاً فلم حمل على اللفظ فأفرد ؟

القول بمراعاة الوزن لا يعين عليه شيء، فذلك غرض لفظى لا يعتد به عند التحقيق. وأرى أنه أفرد هنا لدلالته على القلة والندرة فى النفى، ونفى القلة هنا فيها معنى العدم ...

ويلاحظ أن الشاعر هنا قد نفى القلة بعد أن أثبتها ؛ لأن الجهة منفكـــة، إذ النفـــى هنـــا منصب إلى لازمها من قلة القدر والغناء، والمروءة .. بخلاف الإثبات فى الواقع فهو فى العدد .. ولا تلازم بينهما كما يشهد به واقع المسلمين اليوم ... فهم كثير ولكن غثاء كغثاء السيل ... وغيرهم قليل ولكن فى الغناء والقدر يبزونهم ...

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية / ٣٤٩ .

(٢) يونس / ٤٢ .

(٣) يونس / ٤٣ .

(٤) ينظر : البرهان للكرمانى / ٢٢٣ .

كما أن الشاعر هنا قد نفى المثلية : " مثلنا " دون الشبه أو غير ذلك؛ لأن مثل تدل على الاتحاد التام والتكافؤ فى الذات والصفات، فهو الشبه من جميع الوجوه لذاته .. (١)

وتنكير : " شباب " و " كهول " للتعظيم والتفخيم، وهذا يتلاقى مع سياق الفخر بقومه والاعتداد بهم ...

وتقديم " شباب " على " كهول " يمكن أن يكون لمراعاة القافية لأنها مبنية على اللام المضمومة، ثم فيه معنى آخر، وهو أن الصفات المذكورة بعد ذلك من مقارعة الأبطال ونزال الكماة هى بالشباب ألصق، فلذا قدم هنا، لمراعاة السياق ..

واكتفى الشاعر بوصف الشباب : " تسامى للعلا " فحذف هذه الصفة مع الكهول لدلالة ما تقدم عليها ... وليدل على المساواة فى المكارم وجليل الصفات بينهما ..

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ∴ عزيز وجار الأكثرين ذليل

هذا معطوف على سابقه داخل تحته فى رد دعواها استلزام القلة فى العدد لقلة القدر والغناء كأنه قد ذكر عوامل متعددة تمنع من تحقيق قولها .

ووجه العطف هنا ــ فوق ما تقدم ــ هو دفع ما يتوهم من كون اكتساب المعالى، والترقى فى درجات الفضل سبباً لذل جيرانهم، بل لعزهم ...

والكلام مبنى على التعريض بعشيرة من جاذبه الكلام، وجعل القلة سبباً فى نزول الدرجة ... بأن جار من لهم العدد والكثرة فى ذل .. (٢)

و" ما " فى قوله " وما ضرنا " لها وجهان :

- فهى ــ فى وجه ــ نافية، أى : لم يضرنا ... والنفى بـ : " ما " لرد الدعوى السابقة بأن قلة عددهم قد تضر بهم ....

- وهى ــ فى وجه آخر ــ للاستفهام، والمعنى : أى شيء يضرنا (٣) وحالنا كذا وكذا ...

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية / ١٧٥، ١٧٦ .

(٢) ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقى /١١٢، ١١٣ .

(٣) السابق / ١١٣ .

وحمل الكلام على الاستفهام التقريرى أولى ؛ إذ إنه يدل على ثقة المتكلم بالأمر حتى إن المخاطب لا يستطيع الإنكار، ولا يلزمه إلا التسليم بالحكم، ثم فيه معنى آخر وهو أن هذا الأمر مقرر ثابت، قد اشتهر بين الناس .

ويمكن أن يكون الاستفهام هنا إنكارياً بمعنى النفى، أى : لم يضرنا... وله فضل على النفى الصريح من وجهين :

- ذكر الإمام أن القصد من الاستفهام الإنكارى هو أن يتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه ويرتدع ويعى بالجواب ... لأنه قد جوز وجود أمر لا يوجد مثله .. [1] وهذا يومئ إلى أن من مقامات الإنكار تكذيب مدع ...

وهذا يليق بمقام رد الدعوى السابقة، فإنه لو تنبه إلى أنها ـــ لقلة ـــ داعية إلى التعزز .. والسمو .. لارتدع عن التهمة السابقة ...

- دلالة الإنكار على معنى التوبيخ، وهذا يتلاقى مع التعريض بذل جيران من جاذبه الكلام ..

- ونفى الضر هنا دون غيره من السوء مثلاً لدلالته على الوقوع من حيث لا يعلم [2] .. فهو أوقع فى النفى ...

وبناء الجملة على الحال فى الموضعين : " وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل " للمقارنة بين حالين متناقضين، فالتضاد اللفظى ـــ هنا ـــ بين عزيز وذليل، والمعنوى بين " جارنا وجار الأكثرين " يزيد من إظهار الصورة واكتمالها، وهذا يلائم التعريض بالآخرين ..

ومن ثم آثر " الأكثرين" ولم يقل : " وجاركم " مثلاً على الخطاب، فالغيبة هنا لها معنى التوبيخ والتقريع ...

لنا جبل يحتله من نجيره ∴ منيع يرد الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثرى وسما به ∴ إلى النجم فرع لا ينال طويل

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره ∴ يعز على من رامه ويطول

---

(١) ينظر : الدلائل / ١١٩، ١٢٠ .

(٢) ينظر : الفروق اللغوية / ٢٢٤ .

الأبيات من هنا إلى نهاية القصيدة بيان وتفسير لحسن الثناء المستحق لهم لما لهم من جليل الصفات ..

والخبر فى البيتين لإظهار عزهم، وهى الصفة الأولى فى هذا السياق الطويل الممتد من الفخر بكريم صفاتهم ...

وكونها الصفة الأولى فى معرض الصفات دليلاً على أنهم يبنون عليها غيرها، فليس لذليل ضعيف من مكارم ولا مآثر ..

والتعبير بالجبل عن العز والسمو استعارة تصريحية أصلية، وذكر ما يلائم الجبل (المستعار منه) من صفات متعددة :

يحتله من نجيره ∴ منيع يرد الطرف وهو كليل

وكذاك قوله : رسا أصله تحت الثرى ..... = ترشيح للاستعارة .

وإيثار الاستعارة هنا له دلالات متعددة منبثقة من المستعار منه وهو الجبل، ثم ما أتبعه من صفات تلائمه ..

فالجبل فيه معنى الثبات والرسوخ وعدم الزوال ... وكذاك عزهم ومجدهم هو ثابت لا يزول ..

كذلك فيه المناعة والعصمة من المخاوف والأخطار ... فكذلك عزهم يمنع غيرهم من الضيم ... فيجيرون من استجار بهم ...

كذلك فيه معنى الملاذ والأمن للطريد ..

كذلك هو يستعصى على من يريده، ويمتنع عنه، فلا ينال، كذلك هم فى رفعة الشأن وعلو القدر ...

وتقديم المسند : " لنا جبل " لإرادة الاختصاص والحصر، أى أن لهم وحدهم هذا العز الرفيع، والقدر المنيع ..

والشاعر هنا قد آثر التقديم فى هذا الموضع الفريد من القصيدة ؛ لأنها الصفة الرئيسية والتى ترتبت عليها بقية الصفات المذكورة بعد ...

وهذه الصفات المذكورة بعد قد بنيت على الجملة الاسمية حينا والفعلية أحياناً تبعاً للغرض المراد ...

فقوله : " يحتله من نجيره " جاء بالفعل المضارع ؛ لأن تلك الصفة تتجدد على مر الزمان، فيدخل الناس فى جوارهم ليتعززوا بهم ...

ثم فيه شيء آخر وهو أن تلك الصفة ظاهرة مكشوفة للناس، ومعلومة عندهم فأراد تشخيصها وتصويرها ...

وهذا معنى يختلف عن المراد من الفعل المضارع فى قوله : (يرد الطرف وهو كليل) لأن الغرض هنا هو القيد : (وهو كليل) ...

وإيثار اسم الفاعل فى : " منيع " لدلالته على الثبات والدوام، وهذا البناء يحتمل أن يكون فعيل بمعنى " فاعل " أى : مانع من يستجير به، ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول، أى ممنوع ممن أراده فيستعصى منه..

والمعنيان يتبادران إلى المتلقى من المقام .. وهذا أدل على رسوخ عزهم وشرفهم ...

وإيثار المنع على غيرهم من الكف أو الصد .. أن المنع فيه دلالة على قدرة الممنوع فهو ما لأجله يتعذر الفعل على القادر، فلا يسمى منعاً إلا إذا كان مع القدرة فهو يضاد الفعل ... [1]

وهذا أبلغ فى الافتخار ؛ لأن منع القادر أدل على قوة المانع وعزه، ولذا يصفون قوة أعدائهم وكثرتهم ... ليدلوا على التمدح بقتلهم ...

وهذه الصفات جاءت مفصولة ؛ لأن القصد فيها إلى تعدادها من غير نظر إلى جمع أو انفراد .. كما هو الشأن فى فصل الصفات عندهم.. [2]

ولذلك عندما أراد المغايرة بين الصفتين، لأنهما متضادتان عطف فى قوله : رسا أصله تحت الثرى وسما به .....

وفى ذكر الضمير " وهو كليل " وتقديمه على المشتق دلالة على التقوى والتأكيد لتحقيق الخبر وتقويته ...

---

(١) الفروق اللغوية /١٢٨ .

(٢) ينظر : الطراز ٣٤/٢، والأشباه والنظائر للسيوطى ١٢٤/٤ .

وتنكير المسند إليه " جبل " وصفته " منيع " لغرض التعظيم والتفخيم من شأنه أو لبيان النوعية بأنه نوع غير متعارف ... وهذا يقويه حمل اللفظ على غير حقيقته ..

رسا أصله تحت الثرى وسما بـه ∴ إلى النجم فرع لا ينال طويل

هذه من صفات الجبل على معناه المجازى .. ولذا آثر : " رسا " على رسخ وثبت ؛ إذ إن الرسو لا يستعمل إلا فى الشيء الثقيل نحو الجبل وما شاكله من الأجسام الكبيرة، يقال : جبل راس...

فالرسو هو الثبات مع العظم والثقل والعلو [1] ؛ ولذا فإيثار الرسو هنا له دلالته على المستعار له من معانى المستعار منه وإيحاءاته المتعددة...

وهذا أقرب إلى ما ذكره المرزوقى من أن الرسو مجرد الثبات فى الأرض، وأن الرسو والرسوخ يتقاربان [2] ؛ إذ يتعدى المراد منها مجرد الثبات، فتأتى مع السفينة كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [3] تشبيهها بالجبل لعظمها، وكذا فى قول الشاعر :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها ∴ فكل حتف امرئ يجرى بمقدار

وكذا تأتى مع النفوس ؛ إذ المراد الثبات مع العظم والعلو، كما فى قول الشاعر :

إذا ما قلوب القوم طارت مخافة ∴ من الموت أرسوا بالنفوس المواجد

فالمراد أثبتوها إثباتاً لا تحلحل معه ولا تموج، على هذا قولهم : الجبال الراسيات ... [4]

وفى البيت مقابلة بين المعنى الأول والثانى ؛ إذ : " رسا " يقابله : "سما "، وقوله : " تحت الثرى " يقابله : " إلى النجم " و " أصله " يقابله "فرع " ..

وهذه المقابلة بين أجزاء المعنيين فيها عمق التصوير وقوته ؛ إذ التضاد بين المعانى يزيدها قوة ووضوحاً ..

والشاعر فى بيان ثبات عزهم فى الآباء وامتداده إلى الأبناء يكون قد نبه إلى تأصله فيهم،

---

(١) الفروق / ٣٣٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١١٤ .

(٣) هود / ٤١ .

(٤) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ٤٩٩، ٥٠٠ .

فليسوا دخلاء فيه .. وهذا ما أشارت إليه الخنساء فى قولها :

السيد الجحجاح وابـن الـسا ∴ دة الـشم الجحـاجح

فهى لم تكتف بوصفه بالسيادة، بل جعلته متأصلاً فيها ...

وهذا المعنى ــ عندى ــ أحسن مما أشار إليه المرزوقى من أن المراد عزنا أصله تحت الأرض السابقة وفرعه عند النجم [1] ؛ لأن ذلك لا يتعدى وصفه بالثبات وعدم البلوغ بخلاف المعنى الذى أشرت إليه فيزيد عليه تسلسله فيهم من القدم مع ثباته وعظمه ...

وهذا المعنى نقله أبو تمام ــ ولكنه قصر عنه فيما أرى ــ فقال :

لنا نبعـة فرعهـا فى الـسماء ∴ وفى هامـة الجـوت أعراقهـا

ووجه ذلك أن الجبل أدل على الثبات والعظم والعلو من النبعة فهو مثـل فى الـصلابة وليس الثبات ...

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره ∴ يعز على مـن رامـه ويطـول

يلاحظ ابتداء أن الشاعر قد رجع إلى الذكر فنص عليه بالضمير (هو) وما ذاك إلا لإرادة تعيينه لأن به يتحقق غرضه من تفخيم مآثره وتعظيم فعال أجداده إذ قد بناه له أبوه (عاديا) ففيه يقول :

بـنى لي عاديـا حـصنا ∴ وعينا كلما شئت استقيت

وأطما تزلـق العقـدان عنـه ∴ إذا مـا ضـامنى أمـر أبيـت

وقيل بل بناه (سليمان بن داود) ــ عليهما السلام ــ بأرض تيماء ويستأنس على ذلك بقول أعشى :

ولا عاديا لم يمنع المـوت مالـه ∴ وورد بتيماء اليهـودي أبلـق

بناه سليمان بـن داود حقبـة ∴ له أزج حـم وطـي موثـق [2]

---

(١) السابق / ١١٤ .

(٢) ينظر : معجـم مـا اسـتعجم للبكـري ٩٧/١، ونهايـة الأرب في فنـون الأدب للنـويري ١١٢/١، وتاج العروس للزبيدي : مادة (بلق) .

وذكر حصنه بهذا الوصف (الأبلق) مما يرجح نسبة القصيدة إلى السموأل، ذاك لثبوت هذا الوصف لحصنه تاريخاً [1]، وإنما آثر الوصف ههنا (الأبلق الفرد) ليميزه عن غيره من حصون العرب في المنعة والقوة، فقد استعصى على الملوك آنذاك حين قصدته الزباء ملك الجزيرة فعجزت عنه، ومن ثم ضربت به العرب المثل في الحصانة والمنعة، تقول : تمرد مارد وعز الأبلق [2] .

ويمكن أن يكون الوصف (الأبلق الفرد) للكشف والبيان لإثبات صورته كما هي في الواقع، ذاك لأنه كان في بنائه بياضا وحمرة أو كان من حجارة مختلفة الألوان[3] فأراد تمييزه بصورته تلك عن غيره بهذا الوصف.

وانظر إلى تعريف الطرفين في تلك الجملة ومدى تلاؤمها مع غرضه السابق في تمييزه عن غيره إذ هي لإرادة الحصر والاختصاص؛ إذ هو وحده من بين حصون العرب كان له هذا الوصف سواء قلنا إنه أراد الاحتراز بوصفه بـ(الأبلق الفرد) عن غيره أو إرادة كشفه وبيانه .

وقوله : (الذي شاع ذكره) يروى : (الذي سار ذكره)[4] وهي أقوى وإن كانت الأولى رواية الديوان ذلك لأنها تفيد أمرين :

- التصوير والتشخيص لتلك المآثر بأنها تسير في البلاد تحدث عن حالها ووصفها وتخبر عن عزها وقوتها .

- أنها أدل على استغراق المكان والزمان من الرواية الأولى .

وتجد الشاعر قد فصل بين الجملة الأولى (هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره) وبين الجملة الثانية (يعز) لأنها بيان وتفسير لما أراده في الأولى من قوته ومنعته فكان بين الجملتين كمال اتصال .

وانظر إلى الاستعلاء (على من رامه ويطول) وما فيه من الدلالة على الشموخ بجانب الحصانة والمنعة .

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة ∴ إذا ما رأته عامر وسلول

---

(١) ينظر : الحماسة البصرية لأبي الحسن البصري ١٩/١، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٣٠/٢٢،

(٢) ينظر : معجم ما استعجم للبكري ٩٧/١ .

(٣) تاج العروس (بلق) .

(٤) انظر : تاج العروس (بلق) .

يقرب حب الموت آجالنا لنا ∴ وتكرهه آجالهم فتطول

هذا معنى آخر من معانى " حسن الثناء " حتى كأن تلك الأبيات مجتمعة بسط وتفصيل لما أجمله فى تلك الجملة .. ولذلك ترى الشاعر عند كل معنى جديد يأتى بالواو، ليدل على المغايرة .. ولذا يعطف بالواو عند المعانى الرئيسة التى تحتاج إلى وقفات منه وتفصيل ...

وإيثار " قوم " فى قوله : " لقوم ما نرى " مع إمكان القول وإنا لا نرى القتل سبة .. فيه دلالات وإيحاءات متعددة ...

أولاً : فيه دلالة على أن تلك الصفة من مقومات قوميتهم ؛ إذ لابد من مقومات متعددة حتى يقوموا بأعباء الحياة ... وتلك الصفة من مقومات قوميتهم ... وهذا أدل على ثبات تلك الصفة فيهم ... ورسوخها بينهم ...

ثانياً : دلالة ذلك على تعاونهم فى القيام بتلك المآثر، وقوتهم فى الاتصاف بها، فالقوم " هم الرجال الذين يقوم بعضهم مع بعض فى الأمور"[1] والقتل والقتال خاص .

ثالثاً : المبالغة فى اكتمال هذه الصفة فيهم ... ولذلك ترى الوصف بـ" قوم " فى الذكر الحكيم [2] جارية حيث يراد المبالغة فى الوصف، كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [3] وغيرها ... إذ المراد إيغالهم فى الظلم فاستحقوا البعد لذلك ...

والتأكيد بإن واللام هنا لأن الكلام مع من جاذبه القول وعيره، فهو ينكر تلك الصفات ... فالتأكيد لرد إنكاره ...

وقد يكون التأكيد ـ هنا ـ لامتلاء نفس المتكلم بتلك المعانى النبيلة والمعانى الشريفة، فهو منفعل بها ... وهذا أقرب إلى سياق الفخر وادعاء أن ذلك معروف ومشهور عند الناس، فهو لا ينكر ...

---

(١) الفروق / ٣١٣ .

(٢) ينظر : المعجم المفهرس / قوم .

(٣) هود / ٤١ .

ويلاحظ أن الشاعر ـــ هنا ـــ يسير على وتيرة واحدة فى النفى، فقد رأيته سابقاً كيف آثر فى النفى " ما " دون : " لا " ... وكذلك هنا قد نفى بـــ " ما " فى قوله : " ما نرى القتل سبة " .... وما ذاك إلا لأنه فى معرض رد الدعوى ومجاذبة الكلام مع مدع ... و " ما " فى النفى لـــرد الدعوى ...

وكان وجه الكلام أن يقول : ما يرون القتل سبة، حتى يرجع الضمير من صفة القوم إليه ولا تعرى منه ....

لكنه لما علم أن المراد بالقوم " هم " قال : ما نرى، وقد جاء فى الصلة مثل هذا وهو فيـــه أفظع، قال :

أنا الـــذى سمـــتنى أمـــى حيـــدرة

والوجه : سمته، حتى لا يعرى الصلة من ضمير الموصول .. [1]

هذا ما ذكره المرزوقى وهو فى تعليله بالعلم بالضمير فصح ذلك = ضـــعيف ولكنـــه ـــ عندى ـــ متلاق مع سياق الفخر والاعتزار بجميل الصفات ... ولا ريب أن ضمير المتكلم ألصق بالفخر وأشبه ... وهذا بين فى هذا الموضع فضمير العظمة " نرى " أشبه بالفخر ... كـــذلك فى قول الإمام على ...

ودقة الكلمة هنا بادية عند أدنى تأمل ؛ فإيثار القتل هنا على الموت لأن المراد هنا نقـــض البنية فى المعركة ... وهذا يتمدحون به ... كذلك، وكذلك إيثار " السب " : " سبة " لأن المراد منه " الإطناب فى الشتم "[2] وهو ما يجلب العار والمنقصة، وهو ما نفاه عنهم وأثبته لغيرهم ...

وجاء الكلام على النفى : " ما نرى القتل سبة " ولم يأت على الإيجاب كأن يقول مثلاً وإنا لقوم نرى القتل فخراً مثلاً ؛ لأنه فى معرض رد اتهام، فنفى عنهم ما يدعيه غيرهم عليهم ...

والتقييد بـــ " إذا " فى الشطر الثانى : " إذا ما رأته عامر وسلول " لتحقيق حدوث ذلك منهم، ولذا زاد " ما " زيادة فى التأكيد ..

---

(١) شرح ديوان الحماسة / ١١٤، ١١٥ .

(٢) الفروق / ٦٤ .

وإفراد الضمير لإرادة القبيلة بأسرها، حيث إن ذلك منهم كلهم لا يشذ فى ذلك أحد ... وهذا أدخل فى التوبيخ والذم ..

وانظر كيف ناسب نفى الرؤية منهم بإثباتها لهم فى : " إذا ما رأته" وليس المراد منها حقيقة الرؤية ؛ بل اتخاذ ذلك مذهباً فى الحياة ... فهذا الطباق بالسلب له وجه فى إبراز التضاد فى الصفات بينهم وبين هؤلاء ...

يقرب حب الموت آجالنا لنا ∴ وتكرهه آجالهم فتطول

هذا معنى شريف قصده الشاعر، حيث جعل " حب الموت " منهم سبباً لعزهم الذى أشار إليه سابقاً، وجعل كراهية الموت سبباً لمذمة عامر وسلول وقرعهم بلازمة من المذلة ...

وفى إسناد " يقرب " إلى " حب الموت " مجاز عقلى لعلاقة السببية هنا ؛ لأن ذلك سبب لدنو آجالهم وليس فاعلاً حقيقياً له ...

وفى هذا الإسناد دلالة على قوة السببية، أى أنهم يغتبطون لاقتحاهم المنايا وحرصهم على ملابسة الحروب ...

وكذلك الأمر فى قوله " وتكرهه آجالهم فتطول " حيث جعل كراهية الموت سبباً لطول آجالهم ...

والإضافة هنا فى قوله : " حب الموت " لها وجهان :

- إما إضافة إلى المفعول، ويكون التقدير يقرب حبنا الموت، وبهذا يكون مقابلاً لقوله وتكرهه آجالهم فتطول ...

والإضافة إلى المفعول هنا تحقق فائدتين :

أولاً : لفظية فى تحقيق المقابلة التامة بين الشطرين، وبهذا يكون نسجاً على منوال البيت السابق ...

وعلى ذلك يختلف المجاز العقلى فى التقدير وإن كان للسببية، فجعل حبهم هم للموت سبباً لذلك ..

ثانياً : المبالغة فى وصفهم بطلب الموت والسعى له، وحرصهم عليه فى لقاء الأعداء ؛ دفعاً للذل وطلباً للعلا ... وإن أدى ذلك إلى قلة عددهم...

- وإما أن تكون الإضافة إلى الفاعل، ويكون المعنى : يقرب حب الموت لنا آجالنا ... ويكون

ذلك جريا على قول متمم بن نويرة .. [1]

فلا تفرض يوما بنفسك إننى ∴ أرى الموت وقاعا على من ترفعا

والمقابلة هنا متحققة على التأويل، أى : إذا كرهت آجالهم الموت فقد كره الموت آجالهم ـ أيضاً ـ ...

والمعنيان متقاربان، بل مرادان، لأنهم إذا أحبوا الموت أحبهم الموت، كذلك إذا كرهت عامر وسلول الموت فالموت يكرههم ... فهناك علاقة بينهما ...

وروى البيت :

يقصر حب الموت آجالنا لنا .....

ووجه ذلك هو المقابلة بين : " يقصر " و " يطول " ...

ورده المرزوقى بأنهم لا يراعون مثل هذا إذا تناسبت المعانى وتقابلت ويكون ذلك منهم كالمتبرئ من التكلف ..

واستشهد المرزوقى بقول أبى ذؤيب الهذلى :

وشيك الفضول بعيد القفول ∴ إلا مشاحا به أو مشيحا

فقد كان يمكنه أن يقول : بطئ القفول، ولكنه لم يراع ذلك .[2]

ومبنى رد المرزوقى ـ كما ذكرت فى موضع آخر ـ [3] على أن مراعاة البديع على حساب تناسب المعانى غير سديد ... فقد عدل القرآن عن البديع لمراعاة معنى لا يتأتى معه، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [4] فلم يقل بمصدق لأنه أراد بجانب التصديق الاطمئنان القلبى ... وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ [5] فلم يقل : وتدعون أحسن الخالقين لأنه أراد معنى آخر وهو زيادة التقبيح والتوبيخ لأن " وزر "

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي / ١١٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١١٦ .

(٣) ينظر : اختيارات المرزوقى فى البلاغة للمؤلف / ٦٥ وما بعدها ـ ط أولى ٢٠٠٣ مطبعة السلاموني.

(٤) يوسف / ١٧ .

(٥) الصافات / ١٢٥.

فيه معنى الترك مع التقبيح والازدراء وهذا أدل على توبيخهم ...

وكذلك الأمر فى البيت فرد المرزوقى ـــ هنا ـــ مبنى على أن البديع هنا لا حاجة إليه، وإذا كان كذلك كان تكلفاً ...

وكلام المرزوقى فى مجمله حسن، ولكنه عند التطبيق على هذا البيت ـــ فى نظرى ـــ غير سديد، فرواية يقصر ـــ عندى ـــ أدل وأقوى.

أما كونها أدل على الغرض المراد، لأن القصر أدل على المراد من القرب ؛ لأن القرب لابد من حاجز معه كما ذكر أبو هلال فلا يدل على بذل الأرواح والنفوس وهو المعنى الذى أراده ...

أما كونه أقوى فلأن ذلك يكمل صورة المقابلة من وجوهها المختلفة...

ودقة الكلمات فى البيت تزيد من المقابلة هنا، فاختيار " حب " فى مقابلة " تكرهه " لها إيحاءات متعددة ..

فالحب يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة معاً، وكذلك تجرى المحبة على الشىء ويكون المراد غيره، فإذا قلت : أحببت زيداً، المراد أنك تحب إكرامه ونفعه .. [1]

وهذا المعنى يتلاقى مع الغرض من الأبيات ؛ لأن حبهم للموت ليس لذاته، بل لما فيه من الحكمة الجليلة من حسن الثناء والعزة والأنفة ودفع الضيم ... الخ

وجاء فى مقابلة " تكرهه " لأن الكراهة لا يستلزم الامتناع والإباء، فلا يمتنعون من الموت ـــ أيضاً ـــ إذا جاء ... ومن ثم ففيه تنبيه إلى أن طول آجالهم أمر مقدر وليس مستلزماً لكرههم الموت ..

ولكن هذا قد لا يساعد عليه العطف بالفاء التى تدل على معنى التسبب والترتيب ولكن السبب قد تخلف ..

كذلك فإيثار " الأجل " فى الموضعين : " آجالنا " آجالهم فيه تنبيه إلى هذا وهو أن لذلك وقت مضروب لانقضائه ...

---

(١) الفروق / ١٣٨ ـــ ١٤٠ .

وكذلك يدور فى كلامهم فأجل الإنسان : هو الوقت لانقضاء عمره، وأجل الدين : محله .. وأجل الموت : وقت حلوله ... (١)

وما مات منا سيد حتف أنفه ∴ ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظبات نفوسنا ∴ وليست على غير السيوف تسيل

هذا معنى آخر متولد من سابقه، وهو أصل لما بعده ؛ فلذا عطف بالواو لوجود المناسبة من وجه ولإرادة التنويع فى تعداد مآثرهم من وجه آخر ..

وهكذا تجد الأبيات مبنية على القبض والبسط فى المعانى ؛ حيث يأتى بمعنى رئيس يعطفه على سابقه ويأخذ فى تفصيله من غير عطف .. فإذا انقضى منه جاء بمعنى رئيس آخر .... وهكذا...

وهذه الجملة المنفية بـ " ما " لرد الدعوى السابقة من استلزام القلة للهوان = تفيض فخراً وعزاً ؛ على سبيل الأولى ؛ فإذا كان ذلك مطرداً مع السادة فيهم فهو مع من دونهم أولى ... وهذه عندهم من أحسن الميتات وأشرفها ...

والشطر الثانى من البيت فيه تكميل أو احتراز عما يظن من كثرة القتل فيهم نتيجة لضعفهم وهالكهم ... فنبه على أنهم لا يهملون ثأرهم، بل يدركونه حيث وقع ...

وقوله : " مات حتف أنفه " مبنى على اعتقادهم أن الإنسان إذا مات على فراشه خرجت روحه مع أنفاسه من أنفه عند نزوع الروح ...

وخص الأنف بذلك لأنه من جهته ينقضى الرمق (٢) ... وبهذا يكون خروج الروح على مرات متعددة ...

بخلاف المقتول فى ساحة المعركة فيعتقدون أن روحه تخرج دفعة واحدة من موضع جرحه..

وبناء الكلام فى العربية يكون على حسب الاعتقاد ــ غالباً ــ وليس على مراعاة الواقع الفعلى ... تدبر قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (٣) فالقلب

---

(١) السابق / ٣٠٤، ٣٠٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١١٧ .

(٣) الأحزاب / ١٠ .

لا يتحرك من مكانه حتى يبلغ الحنجرة ... ولكنهم يعتقدون أن قلب الخائف كذلك ... فبنى الكلام على اعتقادهم ..

كذلك تدبر قول كبشة أخت عمرو بن معد يكرب :

ولا تأخذوا منهم إفالا وأبكرا ∴ وأترك فى بيت بصعدة مظلم

فقد بنت الكلام على اعتقادهم أن المقتول إذا أخذ ثأره أضاء قبره، وإذا قبلت ديته أظلم قبره [1] ...

والتعبير : " مات حتف أنفه " ليس على حقيقته، بل على المجاز المركب، وتولد عنه كناية عن الجبن ... وهذا باد فى قول خالد بن الوليد ــ رضى الله عنه ــ عند موته : " وها أنا ذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء " ...

وقد ذكر التبريزى [2] أن هناك رواية أخرى وهى : وما مات منا سيد فى فراشه .... البيت، وهى رواية تؤيد من يجعل القصيدة جاهلية ...

والروايتان فيهما شبه بالسياق ودلالة على الغرض المراد بيد أن الرواية الثانية أكثر تلاؤماً لما فيها من إرادة العموم في نفي سوى ما ذكره؛ ذلك لأنه ليس المراد نفى أخس الميتات فحسب... وإنما إثبات كريمها ...

ثم إن نفى الموت فى الفراش شامل لإثبات الموت فى المعركة وهو ما يرمى إليه فى بيته ... لأن هذا غاية ما يتحمد به الفتاك وأبنا ء الحروب، وعد ذلك مكتوباً عليهم، كما فى قول عمر بن أبى ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا ∴ وعلى الغانيات جر الذيول

ويعتذرون عمن مات فى غير حرب ولا قتال، كما فى قول الشاعر :

بحمد من سنا بك لا بذم ∴ أبا قران مت على مثال [3]

---

(١) ينظر: شرح ديوان الحماسة / ٢١٧ .

(٢) ينظر : شرح ديوان الحماسة للتبريزى / ١٨٠ .

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى / ١١٧ .

والنفى فى الشطر الثانى : " ولا طل منا حيث كان قتيل " على الفعل : " طل " دون أهدر ؛ لأنه أراد بطل ولم يطلب به، بخلاف : " أهدر " فهو إباحة الدم [1] .. والمراد نفى الأول ..

والإطلاق فى : " حيث كان قتيل " يدل على نهاية القوة، وغاية الشجاعة، فلا يقوم لهم أحد، بل يطلبون ثأرهم حيث كان ومع من اتفق..

والبيت الثانى :

تسيل على حد الظبات نفوسنا ∴ وليست على غير السيوف تسيل

تفسير وبيان وتفصيل لسابقة ؛ ولذا فصله عن سابقه ولم يعطفه عليه، فقد زاد فيه ما فهم من التعبير بالسيد فى البيت السابق دلالة على العموم، فى التعبير بالأولى وهو مفاد الجمع فى الضمير: " نفوسنا " ...

وفى البيت قصر عن طريق الإثبات والنفى، حيث أثبت صفة ونفى غيرها عنهم .. وهذا طريق للحصر غير معهود عند البلاغيين، إلا أن فيه إطناباً بتكرير الكلام مرتين عن طريق اللفظ، بخلاف بقية الطرق الأخرى ففيها اتكاء على المفهوم ...

بيد أنها تزيد عنها الفخامة والوكادة نتيجة للتصريح بالتصريح بالمثبت والمنفى وهذا يدل على الاعتناء والاهتمام بالمعنى المراد ...

وقال " تسيل " فى الموضعين دون تخرج أو غير ذلك ؛ لدلالة السيلان على معنى الخروج فى سهولة وسرعة ..

وتكرار السيوف جار على تكرار أسماء الأجناس والأعلام المقتضى التفخيم وهذا كثير عندهم .. [2]

وروى البيت : تسيل على حد السيوف ...

والإضافة على الوجه الأول تكون على أحد معنيين :

---

(١) الفروق / ٣٤٤ .

(٢) ينظر : التكرير بين المثير والتأثير / ٤٣ د/ عز الدين علي السيد ـ دار الطباعة المحمدية .

– إما أن يكون أراد بالظبات السيوف كلها ثم أضاف الحد إليها، وعليه يكون المراد كما فى الرواية الثانية ..

وعلى هذا يكون فى قوله : " الظبات " مجاز مرسل لعلاقة الجزئية، فعبر بالجزء وهى الظبات وأراد السيوف ...

وذلك لأن الجزء هنا مهم ــ فى سياقه ــ لوجهين :

– لأنه أصل السيف ومعتمده الذى به القتل والقتال، والحرب والضرب، ومن ثم فلا يقوم الكل ــ السيف ــ إلا به ..

– أن الكلام فى القتل وخروج النفوس وهذا له تعلق بالظبات لأنها أداة ذلك...

– وإما أن تكون إضافة الحد إلى الظبات كإضافة البعض إلى الكل، ويكون التقدير : تسيل على الحد من الظبات، وتكون الظبات مضارب السيوف .. [1]

والوجه الأول أليق لدلالة المجاز على معنى التعظيم والتفخيم ... ومبنى الفخر فى البيت فى تقييد قتلهم بالسيف وحده = وهو أن الدماء قد تسال بالعصى وبغيرها مما لا يكون شرفا [2]، فعد القتلة التى تكون بالسيف أكرم، ألا ترى كيف افتخر دريد بن الصمة بذلك فى قوله :

فإنا للحم السيف غير لكيرة ∴ ونلحمه حينا وليس بذى نكر[3]

وفى البيت رد العجز على الصدر، حيث نفى ما أثبته أولاً، فابتدأ البيت بقوله تسيل، وختم بها البيت أيضاً، والكلمتان متفقتان فى اللفظ والمعنى ...

وله وجه من البلاغة ظاهر فى التقرير والتوكيد ؛ لأنه إذا كرر كلامه وأعاده أدى ذلك إلى تقرير عند المخاطب ...

كذلك هو نوع من الربط بين أجزاء الكلام، فيشتد ارتباط ثان بأول وهو من النظم العالى..

---

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٧، ١١٨ .

(٢) كما فى قتل حجر لبنى أسد بالعصى فسموا عبيد العصا . المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) ينظر : شرح ديوان الحماسة /١١٨، ٨٢٥ .

وتقديم المتعلق : " على حد الظبات " لأنه المهم فى الكلام ؛ إذ الغرض يتعلق به أولاً لكونه موطن الفخر والاعتزاز عنده، لذا قدمه ...

ولهذا المعنى ــ أيضاً ــ قدم المتعلق ــ على غير السيوف ــ على الفعل تسيل ؛ إذ المراد وليست تسيل على غير السيوف، فضلاً عن اقتضاء القافية ذلك ...

وإيثار الفعل المضارع فى الموضعين : " تسيل " للدلالة على وقوع ذلك فيهم فى المستقبل واتصاله بذرياتهم من بعدهم ...

ثم ما فى الفعل من التصوير والتشخيص يبرز الموقف جلياً أمام المتلقى كأنه يراه ويشاهده، وهذا يكون فى الأمور المهمة ..

ويلاحظ أن الشاعر قد عدى الفعل تسيل بـ " على " فى الموضعين ويمكن أن يتعدى بالباء لما فيها من معنى السببية، أى تسيل بسبب السيوف.. كما تقول قطعت بالسكين ... ولكنه أراد معنى الاستعلاء فى الميتة، لما فيها من الفخر والشرف، وهذا ما تقوم به " على " ....

صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا ∴ إناث أطابت حملنا وفحول

علونا إلى خير الظهور وحطنا ∴ لوقت إلى خير البطون نزول

فنحن كماء المزن ما فى نصابنا ∴ كهام ولافينا يعد بخيل

هذه الأبيات لها تعلق بما قبلها، واتصال بها وثيق، ذلك لأن ما تقدم من إيثار كريم الموت وما يعلى من القدر ... الخ لا يكون إلا من كرم المناصب والمناسب وطيب المنبت والمغرس، وصفاء أنسابهم وخلوصها مما يكدرها فالكريم يختار ما يعلى به ...

ولذلك فصل الشاعر هنا ولم يعطف مخالفاً ما تقدم عند اختلاف الأغراض والمقاصد لأن ذلك كالجواب عن سؤال اقتضه الأبيات السابقة عن السر فى اختيارهم شريف القتل وكريمه على مجرد الحياة ... فكان الجواب فى هذا ضمنيا وهو لطيب مغرسهم وطهارة نسبهم فلم يكدروه بما يشين ويقبح ...

ويلاحظ أن الشاعر هنا قد ذكر الصفة وضدها، فلم يكتف بذكر: " صفونا " بل عطف عليه : فلم نكدر، وذلك لأنه أراد المبالغة فى الصفاء فى جميع الوجوه وفى كل الأوقات ...

ذلك لأن الاتصاف بالصفة لا تمنع من الاتصاف ببعض ما يضادها على وجه من الوجوه، فتأتى المقابلة بالتضاد لتخليصها من كل شائبه ..

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ فعطف ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ [1] لأنه أراد أن يمحضهم فى الفساد؛ لأنه قد يكون لهم فساد وصلاح فى الأرض فى آن واحد باختلاف وجوه كل ...

كذلك هنا أراد الشاعر نفى اى وجه من وجوه الكدورة، وتمحيض الصفاء المطلق لهم ..

والعطف بالفاء فى : " فلم نكدر " يساعد على ذلك لأنه يدل على التعقيب، فلم يحدث كدورة فى زمن ما ...

والنفى بـ " لم " للفعل المضارع " نكدر " يصرفه إلى المضى ولكن تبقى معه دلالة الاستقبال مرادة؛ لأن من الممكن أن يقول : صفونا فما كدرنا مثلاً .. ولكنه أراد اتصال الماضى بالحاضر والمستقبل، اى أن تلك الصفة قد كانت فيهم سابقاً ثم هم عليها فى الحال .. وسيكون عليها أبناؤهم مستقبلاً ..

وقد أدمج الشاعر هنا ـ عن طريق الترقى فى الصفاء ـ الفخر بالأمهات والآباء، زيادة فى التبجح بجميل الصفات ...

وعطف بقوله : " واخلص سرنا " على " صفونا " ترقياً من الأدنى إلى الأعلى وهذا يكون فى مقام المدح أو الفخر ؛ لأن هذه الصفة فى الآباء والأمهات أكمل وأدل على الغرض المراد ..

وآثر " أخلص " لما فى معنى الخلوص من معنى الاختيار والانتقاء، ومنه سمى الذهب النقى عن الغش خالصاً [2] .. وبهذا يكون قد أشار إلى انتقاء واختيار الأمهات من كرائم النساء وحرائرهن ..

والتعبير بالسر فى قوله : " وأخلص سرنا " كناية عن النكاح، وفيها ـ فوق الدلالة على التأدب والعدول عن اللفظ المستهجن إلى غيره ـ إشارة إلى كون القصيدة إسلامية فهذه الكناية عن النكاح من دأب القرآن وعادته ..

---

(١) الشعراء / ١٥٢ .

(٢) الفروق / ٣٣٣ .

وفى الكناية عن النكاح بالسر، وفيه مبالغة فى الخفاء ؛ لأن السر إخفاء الشيء فى النفس، فلو اختفى بستر أو جدار لم يكن سراً [1] .. = إيماء إلى وجوب ستره وإخفائه ...

وتقديم المفعول : " سرنا " على الفاعل " إناث " على أن الكلام على طهارة الأمهات والآباء، فالكلام عنهن لأحد أمرين :

- إما توصلاً إلى الوصف بقوله : أطابت حملنا .. فتأخيره لذلك حتى يعطف عليه : " وفحول " فى القافية ...

- وإما لأن المراد هو صفاء الأنساب وطهارتها .. وهذا يتعلق بالمفعول .

وفى البيت تقديم ذكرى حيث قدم الإناث على الفحول ... وذلك لأن المقدم هو المهم فى سياقه ...

إذ إن الكلام على نفى كدورة الأنساب واختلاطها، وهذا يتعلق بالإناث ويرتبط بهن، إذ يأتى الصفاء، والكدورة منهن ...

وتنكير (إناث وفحول) لقصد التفخيم والتكثير ؛ تعظيماً لشأنهن وبيان قدرهن ...

علونا إلى خير الظهور وحطنا ∴ لوقت إلى خير البطون نزول

هذا البيت فى وصف " ترددهم فى شرف المصعد والمنحدر، وكرم العنصر والمتحول " ويرى المرزوقى أن تأمل هذه الأبيات يؤدى إلى الكشف عن سلامة اللفظ والمعنى من كل معاب، وحصول الفخامة والجلالة لها فى كل جانب وباب ... [2]

فهناك عناصر أربعة نبه إليها المرزوقى تتصل ببلاغة الأبيات ...

- سلامة ألفاظها مما يعاب ويذم، فليس ثم غرابة أو التواء فى النظم، كما أن الألفاظ دالة على معانيها، وقد وضعت موضعها الأخص الأشكل بها، حيث تراها قارة فى مكانها ...

فالتعبير عن علو مراتبهم بانحدارهم من ظهور أكرم الأباء بقوله : علونا إلى خير الظهور فيه ـ فوق الكناية ـ مبالغة فى الصلاح والحسن ؛ ذلك لأن " خير " يكون على إطلاقه من جميع

---

(١) السابق / ٧٥ .

(٢) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٩ .

الوجوه، ولا يكون إلا حسناً[1] ... ومن ثم فإن المراد التفضيل من جهات متعددة ..

ولذلك حذف المفضل عليه، فلم يقل : من بنى فلان مثلاً .. لأنه أراد الإطلاق وعلى العموم .. أى من الجميع ... وهذا أبلغ من التقييد بشيء معين ..

– سلامة المعنى مما يعاب ويذم، فليس هناك ما يستهجن أو يستقبح، فكنى عن النساء واللقاء تأدباً وتعففاً ...

– فيها من الفخامة والجلالة حيث حشد فيها ما يدل على التعظيم والتفخيم، سواء من ضمير الجمع " نا " أو فى مقابلة : خير الظهور بـ " خير البطون " ليدل على أن الخيرية قد ضمت جميع الأطراف ...

والشاعر قد عدى الفعل : " علونا " بـ " إلى " ومقتضى الظاهر التعدية بـ " على " لأن فى الفعل معنى الاستعلاء، وهذا أشبه بـ " على" ولكنه أراد معنى القصد إلى الشيء من غير تحول عنه ولا التفات إلى غيره.. كأن ذلك مقصدهم الأسمى الذى يسعون إليه .. ولهذا خالف فى تعدية : "حطنا لوقت " فعدى الفعل باللام ؛ لأنه أراد معنى الانتهاء إلى الغاية، فانتهاء مقصدهم إلى أشرف الأمهات ...

والشاعر قد فصل هذا البيت عن سابقه ؛ لأنه كالتفسير له، والبيان للصفاء فى الأنساب ... فبينهما كمال اتصال ..

فنحن كماء المزن ما فى نصابنا ∴ كهام ولا فينا يعد بخيل

العطف بالفاء ـ هنا ـ لما فيها من معنى السببية والترتيب، أى أن ذلك سبب عما سبق تقريره من حقائق طهارتهم ... وهو مرتب عليه ..

ولم يقل : " فإنا كماء المزن " مع ما فيها من التعظيم والتفخيم شأن ضمير الجمع : " نحن " لأنه لم يرد التأكيد، كأن تلك الحقيقة ـ بعد ما سبق تقريره وتحقيقه ـ قد صارت مسلمة لا يشك فيها ..

---

(١) الفروق / ٢٣٦ .

وإيثار ماء المزن فى المشبه به ؛ لأن ماء المزن عندهم أصفى المياه وأنقاها، فشبه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر .. [1]

ولم يقل : كماء السحاب أو المطر ... وإنما آثر المزن لما فيه من معنى الإضاءة والبياض والسخاء ... يقول الراغب : " المزن : السحاب المضيء ... ويقال الهلال الذى يظهر من خلال السحاب ابن مزنة، وفلان يتمزن أى : يتسخى ... " [2]

ولذا فليس المزن المطلق السحاب كما ذهب إليه المرزوقى ؛ لأن من السحاب ما هو كهام ... وهو ما نفاه عنهم فى السياق البعدى للتشبيه...

والشاعر هنا قد زاد : " نصابنا " فى قوله : " ما فى نصابنا كهام " وكان يمكن أن يقول : ما فينا كهام .. ولكنه زاد " نصابنا " والنصاب : الأصل ؛ لأن السياق فى طهارة أصولهم، فقبله :

علونا إلى خير الظهور وحطنا ∴ لوقت إلى خير البطون نزول

فى وصف ترددهم فى شرف المصعد والمنحدر ـــ كما ذهب المرزوقى ـــ [3] وبهذا يكون هذا التشبيه لتحقيق الغرض المراد من الكلام...

ويجوز أن يكون ذلك للاستدلال على فضلهم هم على سبيل الأولى ؛ لأنه إذا شرف الأصل وصفا من كل كدورة وشائبة صفا الفرع ... ولهذا أتبعه بقوله :

ولا فينا يعد بخيل

وهاهنا أصل مهم فى توجيه النفى إلى كلام مقيد ؛ ذلك لأن الكلام إذا كان منفياً ومقيداً بقيد كان ذلك على وجوه مختلفة [4] منها :

- أن يتوجه النفى إلى القيد ؛ فإذا قيل : ما جاء زيد مسرعاً، فالنفى توجه إلى الحال .. والفعل ثابت، وكذا فى قول الشاعر :

---

(١) شرح ديوان الحماسة / ١٢٠ .

(٢) المفردات / ٤٦٧ .

(٣) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٩ .

(٤) ينظر : استقصاؤها فى البرهان للزركشى ٢/ ٣٩٣، ٣٩٤ .

ما كل ما يتمنى المـرء يدركـه ∴ تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن [1]

فالنفي تسلط على " كل " فأفاد سلب العموم، أي : بعض ما يتمنى المرء يدركه ...

- أن يتوجه النفي إلى الفعل والقيد معاً، وهذا من نفي الشيء بإيجابه، كما في قوله تعـالى : ﴿ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [2] فالوجه أن يكون نفياً للسؤال من أصله وليس نفيـاً للإلحـاف في المسألة وإبقاء السؤال ؛ لأن ذلك معارض لسياق الآية ؛ إذ هي في بيان وصفهم بالتعفف، تدبر قوله ـ سبحانه ـ ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّـاسَ إِلْحَافاً﴾ فهذا كالصريح في أن لا يسألون البتة ... [3]

وعلى هذا جاء النظم في البيت ؛ لأن الغرض نفي البخل من أصله؛ إذ المراد : ولا فينـا بخيل فيعد، فهو نفي للبخل رأساً، وليس يريد أن فيهم بخيلاً ومع ذلك لا يعد.. [4]

وهذا كثير في العربية كما في قول امرئ القيس : [5]

على لاحب لا يهتـدى بمنـاره ∴ إذا ساقه العود الديافي جرجـرا

أي : لا منار له فيهتدى به ؛ لأنه إذا كان به منار فإنه يهتدى به ولابد ...

وكذا في قول ابن أحمر في وصف الصحراء بأنها لا مخاطر بها:[6]

لا تفـزع الأرنـب أهوالهـا ∴ ولا ترى الضب بهـا ينجحـر

أي : ليس بها أهوال أصلاً ؛ لأنه إذا كان بها أهوال فإنها تفزع الأرنب ولابد ؛ لأنه يفزع من كل شيء ... وكذا في الشطر الثاني المراد ليس بها ضب أصل ؛ لأن الضب والجحر متلازمان، فحيث أثبت نفي الجحر فقد أثبت نفي الضب ..

---

(١) الدلائل / ٢٨٠ .

(٢) البقرة / ٢٧٣ .

(٣) ينظر : البرهان ٢/٣٩٣ .

(٤) شرح ديوان الحماسة / ١٢٠ .

(٥) ديوانه / ٩٥ .

(٦) الخزانة ٤/٢٧٣، وينظر : بذور المباحث البلاغية / ٦٢٠. ماجستير للمؤلف .

وقد تقول : ولم قال الشاعر : ولا فينا يعد بخيل، ولم يأت على نفى الشيء أصلاً من أول الكلام كأن يقول : ولا فينا بخيل .. ؟

ودع عنك إقامة الوزن والقافية فإن ذلك يستطيع الشاعر إقامته إذا ترتب على ذلك فضل فى المعنى وزيادة ..

الوجه عندى أن الشاعر هنا أراد إقامة الدليل على نفيه، إذ المراد أنه ليس فينا بخيل أصلاً والدليل على ذلك أنه لو كان فينا بخيل لعد وعرف ؛ إذ لا يخفى مكاننا ولا شأننا ؛ لتعرف النـــاس علينا وتتبع أخبارنا ..

وبناء الفعل للمجهول فى قوله : " ولا فينا يعد بخيل " لأن الغرض التركيز علـــى الفعـــل نفسه. فهو المعنى بنفيه هاهنا ..

ثم فيه دلالة العموم والشمول ـــ أيضاً ـــ أى : لا يعده أحد كائناً من كان بخيلاً، ونفـــى البخل عنهم بعد الاستدلال على صفاء أنسابهم بالتشبيه بماء السحاب = فيه مناسبة بين الطرفين ؛ لأنه إذا نفى البخل فقد أثبت الجود والكرم ... والسحاب فى الشطر الأول مثل لذلك .. فهنـــاك تناسب فى العطاء ...

وتقديم القيد هنا : " ولا فينا يعد بخيل " لإرادة الحصر والاختصاص، أى إن هذه الـــصفة خاصة بهم لا تتعداهم إلى غيرهم .. لاسيما وأن الكلام دفع لتهمة ..

وقد يكون فى التقديم معنى التعريض بغيره ممن جاذبه القول واقمه، أى : فيكم لا فينا ... وهذا الوجه أقرب ... لاسيما وأن الأبيات فى أكثرها قائمة ومبنية على نفى شيء وإثبات آخـــر ... على وجوه مختلفة ..

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ∴ ولا ينكرون القول حين نقـــول

إذا سيد منا خـــلا قـــام ســـيد ∴ تقول لما قال الكـــرام فعـــول

هذا البيت وتاليه فى وصف رياستهم وعلو كلامهم ونفاذ حكمهم، ورجوع النـــاس فى المهمات إلى رأيهم والاعتماد على تدبيرهم ومشورتهم[1] وأن ذلك منهم فى كـــل وقـــت وحـــين

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١٢٠ .

لاتصال السيادة فيهم وعدم انقطاعها عنهم ..

ولذا آثر الإنكار ـــ هنا ـــ لأنه يدل على الردع والزجر، وهو ما يلائم الاستعلاء فى " على " فى قوله : " على الناس " .

يقول الراغب : " ونكرت على فلان وأنكرت، : إذا فعلت به فعلاً يردعه " [1] وقوله : " إن شئنا " وقع موقع الاعتراض لبيان طلاقة علوهم، ونفاذ حكمهم موكول إليهم هم، فلا تأثير لأحد عليهم .. ثم فيه بيان سرعة الردع والزجر ...

وهذا ملائم لاختيار المشيئة دون الإدارة ؛ لأن فيها عدم التراخى فى الفعل. يقول أبو هلال : " إن الإرادة تكون لما يتراخى وقته ولما لا يتراخى، والمشيئة لما لم يتراخ وقته . والشاهد أنك تقول : فعلت كذا شاء زيد أو أبى، فيقابل بها إباه وذلك إنما يكون عند محاولة الفعل، وكذلك مشيئته إنما تكون بدلاً من ذلك فى حاله ... " [2]

ودل بقوله : " على الناس قولهم " على معنى إنكار الفعل ـــ أيضاً ـــ إذ القول يستعمل على أوجه متعددة فضلاً عن المركب من الحروف، من الاعتقاد، والدلالة على الشىء والعناية به.. [3]

والبيت فيه ـــ فوق دلالته على انقياد الناس لهواهم، واقتدائهم بحزمهم = معنى القوة المسيطرة والعامة، والتسلط المطلق ...

ولذا فإن ما ذكره المرزوقى [4] بأن هذا البيت يشبه قول الأعشى:

تلقى له سادة الأقوام تابعة ∴ كل سيرضى بأن يلقى له تبعا

إنما هو من بعض الوجوه دون بعض، وإلا فالأعشى ـــ عندى ـــ مقدم فى هذا المعنى ؛ لأنه جعل ذلك عن رضا وطواعية فى قوله : "سيرضى" وهذا فيه معنى القناعة بالانقياد له .. وهذا معنى زائد عن بيت الحارثى ...

---

(١) المفردات / ٥٠٥ .

(٢) الفروق / ١٤٢ .

(٣) المفردات / ٤١٥، وينظر : الفروق / ٤٨ .

(٤) شرح ديوان الحماسة / ١٢٠ .

إذا سيد منا خـــلا قـــام ســـيد ∴ تقول لما قال الكـــرام فعـــول

التقييد بـــ " إذا " لتحقيق الكرام وتوكيده، واستلزام اتصال السيادة فيهم واحداً بعـــد الآخر .. وهذا يدل على شيوع الصفات الحميدة بينهم ...

و" إذا " قال العلماء [1] أنها تدخل على الأفعال، فإذا دخلت على الأسماء كما فى قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [2] لزم تقدير فعل من جنس المذكور ... وهذا بين فى البيت ؛ إذ التقـــدير: إذا خلا سيد منا خلا .. وهذا يفيد التقوية والتأكيد، فيتلاقى مع إيثار " إذا " ...

وهذا معنى مسبوق بما يقاربه فى اللفظ، فيشبهه قول حاتم :

إذا مات منا سيد قـــام بعـــده ∴ نظير له يغـــنى غنـــاه ويخلـــف

وقول عروة :

إذا مات منهم سيد قـــام بعـــده ∴ على مجده غمر المروءة ســـيد[3]

غير أن بناء الأبيات الثلاثة يختلف شيئاً ما ؛ إذ بناه الحارثى على الاسم لإرادة التوكيد، ثم آثر " خلا " على مات مثلاً كما هو عند حاتم وعروة ؛ لأنه أشمل من " مات " لأنـــه يـــستعمل فى الزمان والمكان [4]، فلا يبقوا من غير سيد يدبر أمورهم ويقوم على مصالحهم فى وقت أو مكان...

وتكرير " سيد " فى الموضعين ـــ من غير فاصل بعيد ـــ فلم يقل قام بعده ...، كما قـــال عروة وحاتم لما فيه من معنى التفخيم والتعظيم ؛ إذ هو موضع العناية والفخر ..

و" السيد " المتولى للسواد أى : الجماعة الكثيرة ... ولما كان من شروط المتولى للجماعة أن يكون مهذب النفس قيل لكل من كان فاضلاً فى نفسه : " سيد " . [5]

---

(١) ينظر : المغنى لابن هشام ٢/٥٠، تحقيق وشرح الدكتور / عبد اللطيف محمد الخطيب، السلسلة التراثية ٢١ .

(٢) الانشقاق : ١ .

(٣) شرح ديوان الحماسة / ١٢١ .

(٤) المفردات / ١٥٨ .

(٥) المفردات / ٢٤٧ .

والمفاضلة فى السيادة تكون فى العلم أو السن أو الشرف، ثم فيه معنى الطاعة ممن يلى تدبيرهم [1]، وهذا يفسر .

والتقييد بـ " من " فى قوله : " منا " فى الأبيات الثلاثة دون : "فينا " للنص على أن السيد منهم ومن بينهم، بخلاف فينا فهى وإن أفادت الظرفية وأنه فيهم، لكن لا يستلزم أن يكون منهم، بل قد يكون من غيرهم وسادهم ... وهذا يأنفون منه ...

والترقى فى المدح أدى إلى الابتداء بالقول : " قؤول " ثم ارتقى إلى الفعل : " فعول " ؛ لأن الثانى أدل على معنى السيادة وتحقيقها .. فلا فائدة لقول من غير فعل .. بل يعد هذا عيباً عندهم ..

وما أخمدت نار لنا دون طارق ∴ ولا ذمنا فى النازلين نزيل

وهذا كناية عن دوام كرمهم واتصاله فى كل وقت، بل الإعانة عليه والاستعداد له ... ثم الترقى فى المبالغة فيه بنفى ذم الضيف لهم بعد مفارقتهم ..

والنار فى قوله : " وما أخمدت نار لنا " هى نار الضيافة عند المرزوقى [2]، وهى عندى أشمل من ذلك ؛ فهى ـ فوق ذلك ـ لاهتداء الغريب وابن السبيل إليهم، بدلالة قوله " طارق " وهو لا يكون إلا ليلاً وكانوا يوقدون النيران ليهتدى بها الضلال ... ثم هى معدة لإكرامه بعد نزوله عليهم ...

ولم يقل : " نارنا " بل : " نار لنا " لما تدل عليه اللام من معنى الملك وزيادة الاختصاص...

والبيت قد بنى نظمه على النفى فى الموضعين، وكان يمكن أن يجئ على الإثبات، كأن يقول: ونوقد النار ... ويحمدنا النازل ... ولكن النفى هنا فيه معنى التأديب وعدم الانقطاع، بخلاف الإثبات فلا يستلزم ذلك ولا ينص عليه، ألا ترى أنه لو قال ونوقد النار للضيف ـ مثلاً ـ لما دل على اتصال ذلك فى جميع الأوقات وكذا لو قال ويمدحنا من ينزل عندنا ـ مثلاً ـ لدل

---

(١) ينظر : الفروق / ٢٠٦، ٢١٠ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١٢١ .

على وقوع الصفة ولا يستلزم عدم انقطاعها فى جميع الأزمان .. ولا ريب أن المعنى يستلزم ما عليه البيت ..

والترتيب بين الشطرين على حسب الواقع فالضيف يزل فيهم فيكرم ... ثم يفارقهم فيمدحهم ...

وبناء الفعل للمجهول فى : " أخمدت " لإرادة عموم نفى الحدث على أى وجه كان تركيزاً عليه .. فلم يخمدوها هم ولم يخمدها غيرهم ...

وتنكير " نار " و " طارق " و " نزيل " لإرادة العموم، أى أن كرمهم فى جميع الناس سواء بسواء، فلا يخص أحداً دون أحد .. وهكذا..

وزيادة : " فى النازلين " ــ عندى ــ قليلة الفائدة، فهو حشو ؛ لأن حذفها أحسن . لدلالته على العموم فى النفى سواء نزل فيهم أم لا ؛ لاشتهار خبر كرمهم حتى عرفه الناس جميعاً...

وهذا البيت يبدو غريباً وسط الأبيات عند النظرة الأولى ولكن التحقيق أنه امتداد لعناصر السيادة والرياسة وعلو الكلمة، فليس ذلك فى المعركة فقط، ولكنها شمائل متعددة، فأخذ فى تعدادها ..

وأيامنا مشهورة فى عدونا ∴ لها غرر معلومة وحجول

وأسيافنا فى كل غرب ومشرق ∴ بها من قراع الدارعين فلول

معودة ألا تسل نصالها ∴ فتغمد حتى يستباح قبيل

هذا معنى آخر انتقل إليه الشاعر بعد وصفهم بالكرم ؛ ولذا عطف بالواو : " وأيامنا " لأنه أراد المغايرة والتكثير من صفات السيادة فيهم والتعبير بالأيام عند الوقائع والحروب مجاز مرسل لعلاقة المحلية ؛ حيث عبر بالمحل وأراد الحال فيه ... مبالغة فى الوصف (الحروب والانتصارات) فهى قد استغرقت اليوم كله ...

ثم فيه معنى آخر وهو الدلالة على اشتهار وقائعهم، وعلم الناس بها، حيث صارت موضع تأريخ لهم ..

ولهذا وصفها بقوله :

لها غرر معلومة وحجول

على سبيل التشبيه بالأفراس الغر المحجلة بين الخيل، يعرف بلاؤنا فيها، وحسن آثارنا عند النهوض لها .. [1]

وهذا المعنى تلحظه فى التعبير بالأيام فى قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [2] فهى معروفة عندهم ؛ لعظم الإنعام فيها، ولذا أضافها إلى الله : ﴿ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ وجمع الأيام فى قوله : " وأيامنا " لتعددها وكثرتها ... وإن كان (أفعال) من جموع القلة إلا أن سياق الفخر والاعتزاز يدل على معنى التكثير ... وهذا أيضاً يدل على المعنى الذى أشرت إليه من اشتهارها...

كذلك فى إيثار مشهورة على معروفة ــ مثلاً ــ ملاءمة لما قلت، ذلك لدلالة مشهورة على معرفة الجماعة الكثيرة لها على سبيل الاستلزام، بخلاف معروفة، يقول أبو هلال فى الفرق بين المشهور والمعروف : " إن المشهور هو المعروف عند الجماعة الكثيرة، والمعروف معروف وإن عرفه واحد، يقال : هذا معروف عند زيد، ولا يقال : مشهور عند زيد، ولكن مشهور عند القوم..." [3]

وهناك حذف للمضاف فى قوله : " فى عدونا " ؛ إذ التقدير فى : "هزيمة عدونا " أو ما أشبهه، ولكنه حذف ليدل على معنى العموم والشمول لكل ما فعلوه فى أعدائهم من جرح وأسر ... وقتل ...

وتوحيد المصدر : " عدو " جاء على أصله ؛ لأن المصادر يستوى فيها الواحد والجمع، ولكن تبقى للإفراد لطيفة مرادة ــ هنا ــ وهى الدلالة على أن عداوة الناس لهم واحدة فى صفاتها...

ولذلك ترى القرآن الكريم يفرد عند إرادة الوحدة فى العداوة، كما فى قوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [4] لأن عداوته فى أمر الدين .. ويجمع عند إرادة تنوع العداوة، كما قال : ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ [5] لأن عداوتهم متنوعة، فهذا يعادى فى الدين، وذلك للسيطرة والتملك .. وذاك للمال ... الخ

---

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١٢١ .

(٢) إبراهيم / ٥ .

(٣) الفروق / ١١٠ .

(٤) الكهف / ٥١ .

(٥) الممتحنة / ٢ .

وتقديم المسند فى قوله : " لها غرر " لإرادة التقوية والتوكيد ؛ لأنه فى معرض الرد على من جاذبه القول ...

وجمع : " غرر " و " حجول " لمقابلة الجمع فى : " أيامنا " ويمكن أن يكون الجمع لإرادة المبالغة فى شهرتها ومعرفة الناس بها ...

وأسيافنا فى كل غرب ومشرق ∴ بها من قراع الدارعين فلول

هذا المعنى ــ فى ظاهره ــ كسابقه، إلا أن العطف بالواو : "وأسيافنا " يبعد من ذلك ويجعله كأنه غرض مستقل عن سابقه، وإن كان ترقياً فى الدلالة على مقارعة الأعداء ...

وجمع " أسيافنا " وإن كان جمع قلة، وهو لا يليق بمقام الافتخار، لأن اللائق سيوف دون أسياف للدلالة على كثرتها ... إلا أن له تخريجاً وإن كان بعيداً ولهذا نقد النابغة حسان فى قوله :

لنا الجفنات الغر يبرقن بالدجى ∴ وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

لأن اللائق بمقام الفخر الجفان والسيوف، لدلالتها على الكثرة ... ولذا قال له : قللت جفانك ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت وأسيافنا ولو قلت : سيوفنا لكان أحسن .. [1]

ولكن يمكن أن يكون : " أسيافنا " جمع قلة ــ هنا ــ فى مقابلة "أيامنا " فى البيت السابق فيكون قد نظر إلى المقابلة اللفظية بين أجزاء القصيدة فى نوع الجمع .

ولكن يبعد ذلك أن " أسياف " جمع " سيف " لها جمع كثرة من لفظها وهو " سيوف " بخلاف " أيام " جمع " يوم " فلا جمع كثرة لها فدل جمع القلة " أيام " على التكثير بمراعاة قرائن الأحوال، حيث إن القصيدة فى الفخر ...

ويمكن أن يكون جمع القلة : " أسياف " تمشياً مع الاعتراف فى أول القصيدة بقلة العدد فى قوله :

تعيرنا أنا قليل عديدنا ∴ فقلت لها إن الكرام قليل

ولكن هذا بعيد ــ أيضاً ــ لعدم استلزام ذلك لهذا ؛ فالجهة منفكة... ثم إنه لم يرض بقلة القدر والغناء، بل دل على علو أمرهم .. وكثرة السيوف لازمة لذلك ...

---

(١) ينظر : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ١٩ــ ط بيروت .

والتعبير بقوله : " فى كل غرب ومشرق " للدلالة على العموم فى كل الجهات، وليس الشرق والغرب فقط، فإذا ذكرتا فالمراد الشمول كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ [1] فالمراد استغراق جميع الجهات وهذا أدل على طلاقة القدرة، كذلك الأمر هنا المراد استغراق جميع الأماكن وهذا أدل على الفخر والقوة ..

وتقديم القيد فى قوله : " فى كل غرب ومشرق " لأن ذلك المعنى هو موضع العناية والاهتمام ؛ إذ به يكون الفخر والعزة ..

والوصف بقوله : " بها من قراع الدارعين، أى الذين يلبسون الدروع فى الحروب ويتهيأون لها بالعدة والسلاح وتمام الآلة، دون أن يقول الناس مثلاً، أو الأعداء .. فيه دلالة على وصف عدوهم بأنه " على غاية الاحتراز منهم، وفى أكمل الاستعداد لهم " ... [2]

وفى هذا مدح لقومه بالقوة والغلبة ؛ لأن عادة الشعراء إذا وصفوا قوة عدوهم ومنعتهم وتمام آلتهم، والاحتراز فى الحروب أن يدلوا بذلك على المبالغة فى الافتخار ؛ لأنه لا يكون ذلك إلا إذا دعاه إلى البراز فأبى، أو بارزه فلم يقم له، أو فر منه، فهو يقول له : قد فعلت ذلك وأنت تام الآلة حديد العدة ... فهذا ثلم لعرضك، وأدل على قوتى وعزى ..

وهذا ما تجده فى هذا البيت لأنه وصف عدوه بأنه يتحصن بالدرع، ومع ذلك فأسيافهم تنال منهم وتسلبهم القوة .. فهذا أدل على الافتخار...

ووصف السيوف بأن بها فلولاً من قراع الدارعين تأكيد للمدح بما يشبه ضده فهو يشبه قول النابغة الذبيانى : [3]

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم ∴ بهن فلول من قراع الكتائب

فهذا يدل على كثرة ضرب الأعداء وقوته، بحيث تفللت سيوفهم من ذلك، وهذا سبيل المدح ... والفخر ... ولهذا آثر " قراع " دون ضرب ؛ لأن القرع فيه معنى القوة والشدة،

---

(١) البقرة / ١١٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١٢٢ .

(٣) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١٢٢ .

ولذلك سميت الساعة بالقارعة فى قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [1] لشدة الصوت وقوته.

ومن ثم نص العلماء على أن السموأل قد أخذ اللفظ والمعنى من النابغة في البيت المتقدم.[2]

ويلاحظ أن هذا البيت وسابقه قد بناه الشاعر على الجملة الاسمية "وأيامنا مشهورة "، " وأسيافنا ..." وذلك للدلالة على الثبات والدوام، أى ان هذه الصفة لازمة فيهم لا تنقطع ولا تزول ...

معودة ألا تسل نصالها ∴ فتغمد حتى يستباح قبيل

قوله : " معودة " لها وجهان :

- أن تكون حالاً مما يدل عليه قوله فى البيت السابق : " بها من قراع الدارعين فلول " وهذا الوجه فيه ضعف ما ..

- أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره : هى معودة ... [3]

والوجه الثانى أقوى ؛ لأنها إذا كانت حالاً، فإنها تكون فى بعض الأوقات دون بعض وليس فى جميع الأوقات .. وهذا غير وجيه ...

ولكن يمكن أن تكون الحال لازمة، وهذا بعيد ..

أما الوجه الثانى فهو أدل على المدح وأقوى فى الفخر، أما كونه أدل على المدح فلدلالته على أن ذلك دأبها أبداً وفى كل وقت ...

ثم فى الوجه الثانى دلالة على اشتهار أمرها، فهى معروفة عند المخاطب ولا تنكر، وهذا يقوى من الفخر ...

وفى التعبير استعارة مكنية ؛ لأن أصل العادة هى المواظبة على الشيء، وذلك من خصائص أصحابها وليس للسيف من ذلك شيء ..

واسم المفعول هنا : " معودة " فيه دلالة على التركيز على الحدث نفسه ؛ لأنه موضع

---

(١) القارعة / ١ ، ٢ .

(٢) ينظر: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين ــ الخالديان ١/١٤٥.

(٣) شرح ديوان الحماسة / ١٢٣ .

الفخر، وقد علم الفاعل لا محالة، فهو متعين من السياق ادعاء ..

والغاية فى قوله : " حتى يستباح قبيل " تعيين لوقت غمد السيوف، وهذا الوقت هو نهاية الأمر للأعداء ... وأدل على الفخر لهم ...

ذلك لأن الاستباحة قد وقعت على : " قبيل " لدلالته على العموم والشمول، فهو جمع قبيلة وفيه معنى الكفالة [1] ... وفى هذا نهاية الفخر ؛ فإذا استبيح الجمع دل على القوة ...

ثم ما فى دلالة الاستباحة فى قوله : " حتى يستباح قبيل " على معنى الاستئصال، واتخاذ ذلك مباحاً للنفس .. كل ذلك يدل على المعنى المراد من الفخر والقوة ...

والعطف بالفاء فى قوله : " فتغمدا " للدلالة على التعقيب والمسارعة فى استباحة هذه الجماعة المختلفة ...

خاتمة القصيدة

سلى إن جهلت الناس عنا وعنكم ∴ فليس سواء عالم وجهول

فإن بنى الديان قطب لقومهم ∴ تدور رحاهم حولهم وتجول

هذان البيتان يمثلان حسن ختام لهذه الصفات التى ادعاها لقومه، لأنها استدلال على تصحيح ما ادعاه من الخصال التى عددها بشهادة الناس له وتصديقهم مقاله . [2]

وفى هذا دلالة على ثقة المتكلم بصدق كلامه، وأن تلك الصفات مشورة للناس ومعروفة عندهم، لا يمكن أن تنكر فهى كالشمس فى رابعة النهار ...

وهناك تلاؤم بين البدء والختام، فهو فى استهلال قصيدته قد أتى بحكمة عامة لا تنكر فهى مركوزة فى الطباع .. وفى الختام أتى بأمر مسلم عند الناس جميعاً ... [3]

وهذه عادة الشعراء فى الاستدلال على صدق كلامهم ... ألا ترى إلى قول ابن الدمنية :

سلى البانة الغناء بالأجرع الذى ∴ به البان هل حييت أطلال دارك

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية / ١٨٥، والمفردات / ٣٩٢ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١٢٣ .

(٣) ديوان ابن الدمينة / ١٥ .

وهل قمت فى أظلالهن عشية ∴ مقام أخى البأساء واخترت ذلك

وكذا قول عنترة : [1]

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ∴ إن كنت جاهلة بما لم تعلم

يخبرك من شهد الوقيعة أننى ∴ أغشى الوغى وأعف عند المغنم

فهذا يدل على ثقته بالأمر، لشهرته فى ذلك ..

وتعدية السؤال بـ " عن " فى قوله " سلى إن جهلت الناس عنا وعنكم " فيه دلالة على إرادة المعرفة من السؤال، فهو إذا تعدى بـ "عن" يكون فى الأكثر لاستدعاء المعرفة، وإذا تعدى بـ " من " فهو لاستدعاء المال .. [2]

والتقييد بـ " إن " فى قوله : " إن جهلت " لإرادة الندرة والشك والقلة، لأن اشتهار صفاقم، ووضوح شأنهم = يمنع أن تكون جاهلة بهم..

و " ال " فى " الناس " لمعنى الاستغراق، أى استغراق الجنس كله، وفى هذا مبالغة فى اشتهار أمرهم بين الناس جميعاً ...

وهناك روايتان للبيت فضلاً عن رواية المرزوقى : وهما " سلى إن جهلت الناس عنا فتخبرى "، و " سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم " والفرق بينها ظاهر ؛ لأنه الرواية الأولى فيها معنى المقارنة بينهم وبين قومها ؛ فتكون هى من جاذبته الكلام فى أول القصيدة فى قوله :

تعيرنا أنا قليل عديدنا ∴ فقلت لها إن الكرام قليل

وفى هذه المقارنة دلالة على أن البون بينهما شاسع لا يلتبس على الناس ...

أما الرواية الثانية : " فتخبرى " فيها معنى المسارعة إلى الإخبار بحقيقتهم ؛ لثناء الناس على صفاقم ..

أما الرواية الثالثة فهي " عنا وعنهم " بضمير الغيبة، فالمجاذبة والتعريض مع غيرها ..

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني/ ١٤٧ .

(٢) ينظر : المفردات / ٢٥٠ .

والشطر الثانى : " وليس سواء عالم وجهول " الأولى العطف بالفاء أو الفصل ولا أرى للواو ــ هنا ــ وجهاً ...

ذلك لأنه فى معنى بيان السبب من السؤال وهذا ظاهر على رواية المرزوقى : " عنا وعنكم " ثم هو فى جواب سؤال عن العلة والسبب فى السؤال ...

وقد يكون العطف بالواو ــ هنا ــ لمعنى الزيادة فى الحث على السؤال، كأنه ذكر سببين يدعوان إلى السؤال عنهم، فالأول هو جهلها بهم، والثانى هو تفضيل العلم بالأمور ...

وعلى هذا يكون قوله : " فإن بنى الديان ... " فى البيت التالى هو لبيان العلة والسبب الداعى إلى السؤال ..

والاختلاف بين " عالم " و " جهول " فى بنية الكلمة، إما لمراعاة القافية، مشاكلة لبناء القوافى فى الأبيات السابقة .. وإما للدلالة على المبالغة فى الجهل، وهذا تظهر معه المفارقة أكثر والمباينة أوضح ...

وكذا الأمر فى تقديم خبر " ليس" : " سواء " ؛ إذ الأصل : فليس عالم وجهول سواء .. وذلك لمراعاة القافية .. أو للعناية بنفى التسوية ؛ لأنها الغرض المهم من الكلام ...

فإن بنى الديان قطب لقومهم ∴ تدور رحاهم حولهم وتجول

هذا البيت مبنى على التشبيه لتحقيق كل الصفات المتقدمة ؛ فالقطب ــ فى أصل وضعه ــ : الحديدة فى الطبق الأسفل من الرحى يدور عليها الطبق الأعلى، ولذا قالوا ــ على التشبيه ــ: فلان قطب بنى فلان، أى سيدهم الذى يلوذون به ... [1]

وهذا بين فى البيت، حيث أراد تشبيه حالهم بين الناس فى اعتماد الناس عليهم واحتمائهم بهم ... بالقطب .. حيث هو أصل الرحى التى عليها تدور ...

والتأكيد بـ " إن " ــ هنا ــ لمراعاة المخاطب أو المتكلم ..

أما مراعاة المخاطب فهناك من ينكر عليه ذلك ويعيره بقلة العدد، حيث أراد قلة القدر والغناء .. فأراد الشاعر رد دعواه ...

---

(١) شرح ديوان الحماسة / ١٢٤ .

أما مراعاة حال المتكلم ... فهو بين ؛ إذ يدل على اتصال الشاعر بتلك الصفات وتأثره بها ... فهي صفات جليلة ..

وكان الأولى أن يكون التقييد هنا عاماً شاملاً ؛ لأنه دل على الفخر، أما قوله " لقومهم " ففيه تقليل لقدرهم هونا ما ـــ إلا إذا أراد أنهم يعودون بالحماية على قومهم أولاً ... ثم باقي الناس بعد ذلك تبع لهم ..

وقوله : " تدور رحاهم حولهم وتجول " لتحقيق التشبيه وبيان وجه الشبه المقصود، وهـــو أن الناس يلوذون بهم، ويدورون حولهم، يأتمرون بأمرهم ... ويقفون عند رأيهم ...

ولذلك أعاد الضمير على قوله : " قومهم " في قوله " رحاهم " ولم يقل " رحاها " ليعود الضمير على القطب أي الحديدة ؛ ذلك أن الغرض المراد هو وصفهم هم وبيان وجه الشبه بالنسبة إليهم ...

والتشبيه ـــ هنا ـــ لبيان الحال ؛ لأن أمر الحديدة في الطبق الأسفل من الرحى وكونهـــا قوامهـــا ومعتمدها = أمر معروف عندهم، ومقرر لديهم ... ومن ثم جاء التشبيه لبيان الحال ...

خاتمـــة البحـــث

الحمد لله بدءا وخاتمة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد :

فقد أثبت البحث بعض النتائج التي يراها جديرة بالتسجيل في نهايته:

- رجح البحث نسبة القصيدة للسموأل عن طريق دلالات التراكيب واختيار الألفاظ القريبة إما من حاله أو بنائه، ونفى أن تكون مصنوعة كلها أو بعضها عن طريق تتبع بنائها واستوائه علـــى نهج واحد ثم اتفاق معانيها وتسلسلها من المعنى الأول الذي انبثقت منه القصيدة .

ومن ثم فيوصي البحث بتتبع ما قيل بنحله ووضعه والنظر في طرائق وأساليب الشعراء ثم الحكم عليه من خلال سمت بيان كل شاعر وطرق تعبيره عن معانيه .

وهذا أولى من الحكم بالوضع والنحل أو الصحة عن طريق الروايات التاريخية أو الأدبيـــة لدخول كثير مما لا يمكن تمييزه من سقيمه.

- بين البحث كيفية تلائم مطلع القصيدة مع تراكيبها وكيف تسلسلت أفكارها ومعانيها وأبياتها من الجزء الأول فيها ؛ إذ كلها فيما يصون العرض ويحفظ الأصل ويدفع العيب .
- نبه البحث إلى الفروق الموجودة بين الروايات المتعددة في القصيدة ومدى تناسبها مع بنائهـــا كله، وكيف تستجاد إحدى الروايات وتختار.
- لم يكن التحليل الجزئي من وكد البحث وهمه إلا بمقدار ما يعينه على إبراز الخصائص الكليـــة للنظم من خلال أجزائه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصـــادر والمراجـــع

- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين ـــ الخالديان. ط دار الجيل بيروت.
- الأغاني لأبي الفرج ـــ تح سمير جابر ـــ دار الفكر العربي ـــ بيروت ـــ ط ثانية .
- الإيضاح للخطيب القزويني ط دار الجيل بيروت . .
- اختيارات المرزوقى فى البلاغة للمؤلف ـــ ط أولى ٢٠٠٣ مطبعة السلاموني.
- اعتراضات الشيخ الطاهر البلاغية في التحرير والتنوير عرض وتأصيل ودراســة ـــ دكتــوراه للمؤلف .
- بذور المباحث البلاغية في معاني القرآن وإعرابه للزجاج . ماجستير للمؤلف .
- البرهان في علوم القرآن للزركشى ـــ ط دار التراث .
- البرهان للكرمانى (أسرار التكرار) ـــ ط دار الكتب العلمية .
- تاج العروس للزبيدي ـــ ط الكويت .
- تجريد البناني على مختصر السعد .
- التكرير بين المثير والتأثير د/ عز الدين علي السيد ـــ دار الطباعة المحمدية .
- دلائــل الإعجــاز لعبــد القــاهر الجرجــاني ـــ تحقيــق الــشيخ/ محمــود شــاكر ، مطبعة الخانجي .
- ديوان ابن الدمينة ـــ دار صادر بيروت
- السموأل الحقيقة والتاريخ ـــ د/ فضل بن عمار العماري ـــ مجلة جامعة الملك سعود، العدد ١٤٢٢هـ ـــ ٢٠٠٢.
- شرح المعلقات السبع للزوزنى ـــ دار صادر بيروت .
- شرح ديوان الحماسة للتبريزي ـــ دار صادر بيروت .
- شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ـــ تحقيق عبد السلام هارون ـــ دار الجيل ـــ بيروت .
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ـــ قراءة الشيخ / محمود شاكر .
- عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ـــ تح / عباس عبد الساتر ـــ دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ ط أولى ١٤٠٢هـ ـــ ١٩٨٢م .

➢ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ــ دار الكتب العلمية بيروت .
➢ قراءة في لاميات الأمم د/ محمود الريداوي مجلة التراث العربي دمشق العدد ٨٣، ٨٤ موقع اتحاد الكتاب العرب الالكتروني .
➢ الكتاب ــ سيبويه ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ الطبعة الثالثة .
➢ المعجم المفهرس ــ محمد فؤاد عبد الباقي .
➢ معلقة زهير فى ضوء نظرية النظم د/ عبده زايد .
➢ المغنى لابن هشام ٢/٥٠، تحقيق وشرح الدكتور / عبد اللطيف محمد الخطيب، السلسلة التراثية ٢١ .
➢ مفتاح العلوم للسكاكي ــ دار صادر بيروت .
➢ المفردات للراغب الأصفهاني ــ ط إيران .
➢ مواهب الفتاح (شروح) .
➢ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ط بيروت .